# في ظلال القرآن

الجزء الثاني والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

# فى ظلال القرآن

الجزء الثانى والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الأحزاب وسبأ وفاطر

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ : إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا .

« يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا .

« يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ، فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ، فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ، وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ، وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ ، وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؛ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ، وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا .

« إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » . .

هذا الدرس الثالث في سورة الأحزاب خاص بأزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما عدا الاستطراد الأخير لبيان جزاء المسلمين كافة والمسلمات ـ ولقد سبق في أوائل السورة تسميتهن « أمهات المؤمنين » . ولهذه الأمومة تكاليفها . وللرتبة السامية التي استحققن بها هذه الصفة

تكاليفها . ولمكانتهن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكاليفها . وفى هذا الدرس بيان لشيء من هذه التكاليف ؛ وإقرار القيم التي أراد الله لبيت النبوة الطاهر أن يمثلها ، وأن يقوم عليها ، وأن يكون فيها منارة يهتدى بها السالكون .

* * *

« يا أيها النبي ، قل لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » . .

لقد اختار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف ، لاعجزا عن حياة المتاع ، فقد عاش حتى فتحت له الأرض ، وكثرت غنائمها ، وعم فيؤها ، واغتنى من لم يكن له من قبل مال ولا زاد ! ومع هذا فقد كان الشهر يمضى ولا توقد فى بيوته نار . مع جوده بالصدقات والهبات والهدايا . ولكن ذلك كان اختيارا للاستعلاء على متاع الحياة الدنيا ورغبة خالصة فيما عند الله . رغبة الذى يملك ولكنه يعف ويستعلى ويختار . . ولم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكلفا من عقيدته ولا من شريعته أن يعيش مثل هذه المعيشة التى أخذ بها نفسه وأهل بيته ، فلم تكن الطيبات محرمة فى عقيدته وشريعته ؛ ولم يحرمها على نفسه حين كانت تقدم إليه عفوا بلا تكلف ، وتحصل بين يديه مصادفة واتفاقا ، لاجريا وراءها ولا تشهيا لها ، ولا انغماسا فيها ولا انشغالا بها . . ولم يكلف أمته كذلك أن تعيش عيشته التى اختارها لنفسه ، إلا أن يختارها من يريد ، استعلاء على اللذائذ والمتاع ، وانطلاقا من ثقلتها إلى حيث الحرية التامة من رغبات النفس وميولها .

ولكن نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كن نساء ، من البشر ، لهن مشاعر البشر . وعلى فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة ، فإن الرغبة الطبيعية فى متاع الحياة ظلت حية فى نفوسهن . فلما أن رأين السعة والرخاء بعدما أفاض الله على رسوله وعلى المؤمنين راجعن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمر النفقة . فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب ، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضى ؛ إذ كانت نفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ترغب فى أن تعيش فيما اختاره لها من طلاقة وارتفاع ورضى ؛ متجردة من الانشغال بمثل ذلك الأمر والاحتفال به أدنى احتفال ؛ وأن تظل حياته وحياة من يلوذون به على ذلك الأفق السامى الوضىء المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا وأوشابها . لا بوصفه حلالا وحراما ـ فقد تبين الحلال والحرام ـ ولكن من ناحية التحرر والانطلاق والفكاك من هواتف هذه الأرض الرخيصة !

ولقد بلغ الأسى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مطالبة نسائه له بالنفقة أن احتجب عن أصحابه . وكان احتجابه عنهم أمرا صعبا عليهم يهون كل شيء دونه . وجاءوا فلم يؤذن لهم . روى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : أقبل أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يستأذن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والناس ببابه جلوس ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس ، فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر ـ رضى الله عنه ـ فاستأذن فلم يؤذن له . ثم أذن لأبي بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ فدخلا ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس وحوله نساؤه ، وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساكت . فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ : لأكلمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعله يضحك . فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ يارسول الله لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتني النفقة آنفا فوجأت عنقها ! فضحك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بدت نواجذه ، وقال : « هن حولي يسألنني النفقة » ! فقام أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر ـ رضى الله ـ عنه إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسألان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماليس عنده ؟ ! فنهاهما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلن : والله لا نسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد هذا المجلس ماليس عنده . . قال : وأنزل الله عز وجل الخيار ، فبدأ بعائشة ـ رضى الله عنها ـ فقال : « إني أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك » قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها ( يا أيها النبي قل لأزواجك ) . . الآية . قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله . وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن الله تعالى لم يبعثني معنفا ، ولكن بعثني معلما ميسرا . لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها [١] » .

وفي رواية البخاري ـ باسناده ـ عن أبي سلمة ابن عبد الرحمان : أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ زوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرته أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه . قالت : فبدأ بي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك » ـ وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه ـ قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال : ( يا أيها النبي قل لأزواجك ) إلى تمام الآيتين . فقلت له : ففي أي هذا أستأمر أبوي ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

---

(١) وأخرجه مسلم من حديث زكريا ابن إسحاق .

لقد جاء القرآن الكريم ليحدد القيم الأساسية فى تصور الإسلام للحياة . هذه القيم التى ينبغى أن تجد ترجمتها الحية فى بيت النبى — صلى الله عليه وسلم — وحياته الخاصة ؛ وأن تتحقق فى أدق صورة وأوضحها فى هذا البيت الذى كان — وسيبقى — منارة للمسلمين وللإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ونزلت آيتا التخيير تحددان الطريق . فإما الحياة الدنيا وزينتها ، وإما الله ورسوله والدار الآخرة . فالقلب الواحد لايسع تصورين للحياة . وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

وقد كانت نساء النبى — صلى الله عليه وسلم — قد قلن : والله لا نسأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعد هذا المجلس ماليس عنده . فنزل القرآن ليقرر أصل القضية . فليست المسألة أن يكون عنده أو لا يكون . إنما المسألة هى اختيار الله ورسوله والدار الآخرة كلية ، أو اختيار الزينة والمتاع . سواء كانت خزائن الأرض كلها تحت أيديهن أم كانت بيوتهن خاوية من الزاد . وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة اختيارا مطلقا بعد هذا التخيير الحاسم . وكن حيث تؤهلهن مكانتهن من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفى ذلك الأفق العالى الكريم اللائق ببيت الرسول العظيم . وفى بعض الروايات أن النبى — صلى الله عليه وسلم — فرح بهذا الاختيار .

ونحب أن نقف لحظات أمام هذا الحادث نتدبره من بعض زواياه .

إنه يحدد التصور الإسلامى الواضح للقيم ؛ ويرسم الطريق الشعورى للإحساس بالدنيا والآخرة . ويحسم فى القلب المسلم كل أرجحة وكل لجلجة بين قيم الدنيا وقيم الآخرة ؛ بين الاتجاه إلى الأرض والاتجاه إلى السماء . ويخلص هذا القلب من كل وشيجة غريبة تحول بينه وبين التجرد لله والخلوص له وحده دون سواه .

هذا من جانب ومن الجانب الآخر يصور لنا هذا الحادث حقيقة حياة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والذين عاشوا معه واتصلوا به . وأجمل مافى هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان وحياة ناس من البشر ؛ لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم وسماتهم الإنسانية . مع كل تلك العظمة الفريدة البالغة التى ارتفعوا إليها ؛ ومع كل هذا الخلوص لله والتجرد مما عداه . فالمشاعر الإنسانية والعواطف البشرية لم تمت فى تلك النفوس . ولكنها ارتفعت ، وصفت من الأوشاب . ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة ، ولم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان .

وكثيرا مانخطىء نحن حين نتصور للنبى — صلى الله عليه وسلم — ولصحابته — رضوان الله

عليهم ـ صورة غير حقيقية ، أو غير كاملة ، نجردهم فيها من كل المشاعر والعواطف البشرية ، حاسبين أننا نرفعهم بهذا وننزههم عما نعده نحن نقصا وضعفا !

وهذا الخطأ يرسم لهم صورة غير واقعية ، صورة ملفعة بهالات غامضة لاتتبين من خلالها ملامحهم الإنسانية الأصيلة : ومن ثم تنقطع الصلة البشرية بيننا وبينهم . وتبقى شخوصهم في حسنا بين تلك الهالات أقرب إلى الأطياف التي لاتلمس ولاتتماسك في الأيدى ! ونشعر بهم كما لو كانوا خلقا آخر غيرنا . . ملائكة أو خلقا مثلهم مجردا من مشاعر البشر وعواطفهم على كل حال ! ومع شفافية هذه الصورة الخيالية فإنها تبعدهم عن محيطنا ، فلا نعود نتأسى بهم أو نتأثر . يأسا من إمكان التشبه بهم أو الاقتداء العملى في الحياة الواقعية . وتفقد السيرة بذلك أهم عنصر محرك ، وهو استجاشة مشاعرنا للأسوة والتقليد . وتحل محلها الروعة والانبهار ، اللذان لاينتجان إلا شعورا مبهما غامضا سحريا ليس له أثر عملى في حياتنا الواقعية .. ثم نفقد كذلك التجاوب الحى بيننا وبين هذه الشخصيات العظيمة . لأن التجاوب إنما يقع نتيجة لشعورنا بأنهم بشر حقيقيون ، عاشوا بعواطف ومشاعر وانفعالات حقيقية من نوع المشاعر والعواطف والانفعالات التى نعانيها نحن . ولكنهم هم ارتقوا بها وصفوها من الشوائب التى تخالج مشاعرنا .

وحكمة الله واضحة في أن يختار رسله من البشر ، لامن الملائكة ولا من أى خلق آخر غير البشر . كى تبقى الصلة الحقيقية بين حياة الرسل وحياة أتباعهم قائمة ؛ وكى يحس أتباعهم أن قلوبهم كانت تعمرها عواطف ومشاعر من جنس مشاعر البشر وعواطفهم ، وإن صفت ورفت وارتقت . فيحبوهم حب الإنسان للإنسان ؛ ويطمعوا في تقليدهم تقليد الإنسان الصغير للإنسان الكبير .

وفى حادث التخيير نقف أمام الرغبة الطبيعية في نفوس نساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المتاع ؛ كما نقف أمام صورة الحياة البيتية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونسائه ـ رضى الله عنهن ـ وهن أزواج يراجعن زوجهن في أمر النفقة ! فيؤذيه هذا ، ولكنه لا يقبل من أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ أن يضربا عائشة وحفصة على هذه المراجعة . فالمسألة مسألة مشاعر وميول بشرية ، تُصفى وتُرفع ، ولكنها لا تخمد ولا تكبت ! ويظل الأمر كذلك حتى يأتيه أمر الله بتخيير نسائه . فيخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، اختيارا لا إكراه فيه ولا كبت ولا ضغط ؛ فيفرح قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بارتفاع قلوب أزواجه إلى هذا الأفق السامى الوضيء .

ونقف كذلك أمام تلك العاطفة البشرية الحلوة فى قلب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يحب عائشة حبا ظاهرا ؛ ويحب لها أن ترتفع إلى مستوى القيم التى يريدها الله له ولأهل بيته فيبدأ بها فى التخيير ؛ ويريد أن يساعدها على الارتفاع والتجرد ؛ فيطلب إليها ألا تعجل فى الأمر حتى تستشير أبويها ــ وقد علم أنهما لم يكونا يأمرانها بفراقه كما قالت ــ وهذه العاطفة الحلوة فى قلب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا تخطىء عائشة ــ رضى الله عنها ــ من جانبها فى إدراكها ؛ فتسرها وتحفل بتسجيلها فى حديثها . ومن خلال هذا الحديث يبدو النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنسانا يحب زوجه الصغيرة ، فيحب لها أن ترتفع إلى أفقه الذى يعيش فيه ؛ وتبقى معه على هذا الأفق ، تشاركه الشعور بالقيم الأصيلة فى حسه ، والتى يريدها له ربه ولأهل بيته . كذلك تبدو عائشة ــ رضى الله عنها ــ إنسانة يسرها أن تكون مكينة فى قلب زوجها ؛ فتسجل بفرح حرصه عليها ، وحبه لها ، ورغبته فى أن تستعين بأبويها على اختيار الأفق الأعلى فتبقى معه على هــذا الأفق الوضىء . ثم نلمح مشاعرها الأنثوية كذلك ، وهى تطلب إليه ألا يخبر أزواجه الأخريات أنها اختارته حــين يخيرهن ! ومافى هذا الطلب من رغبة فى أن يظهر تفردها فى هــذا الاختيار ، وميزتها على بقية نسائه ، أو على بعضهن فى هــذا المقام ! .. وهنا نلمح عظمة النبوة من جانب آخر فى رد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يقول لهــا : « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ، ولـكن بعثنى معلما ميسرا . لاتسألنى واحدة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » . . فهو لايود أن يحجب عن إحدى نسائه ماقد يعينها على الخير ؛ ولا يمتحنها امتحان التعمية والتعسير ؛ بل يقدم العون لـكل من تريد العون . كى ترتفع على نفسها ، وتتخلص من جواذب الأرض ومغريات المتاع !

هذه الملامح البشرية العزيزة ينبغى لنا ــ ونحن نعرض السيرة ــ ألا نطمسها ، وألا نهملها ، وألا نقلل من قيمتها . فإدراكها على حقيقتها هو الذى يربط بيننا وبين شخصية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وشخصيات أصحابه ــ رضى الله عنهم ــ برباط حى ، فيه من التعاطف والتجاوب ما يستجيش القلب إلى التأسى العملى والاقتداء الواقعى .

***

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى النص القرآنى . فنجده ــ بعد تحديد القيم فى أمر الدنيا والآخرة ؛ وتحقيق قوله تعالى : « ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » فى صورة عملية فى حياة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأهل بيته . . نجده بعد هذا البيان يأخذ فى بيان الجزاء

المدخر لأزواج النبي — صلى الله عليه وسلم — وفيه خصوصية لهن وعليهن ، تناسب مقامهن الكريم ، ومكانهن من رسول الله المختار :

« يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين . وكان ذلك على الله يسيرا . ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين ، وأعتدنا لها رزقا كريما » . .

إنها تبعة المكان الكريم الذى هن فيه . وهن أزواج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهن أمهات المؤمنين . وهذه الصفة وتلك كلتاهما ترتبان عليهن واجبات ثقيلة ، وتعصمانهن كذلك من مقارفة الفاحشة . فإذا فرض وقارفت واحدة منهن فاحشة مبينة واضحة لاخفاء فيها ، كانت مستحقة لضعفين من العذاب . وذلك فرض يبين تبعة المكان الكريم الذى هن فيه .. « وكان ذلك على الله يسيرا » . . لا تمنعه ولا تصعبه مكانتهن من رسول الله المختار . كما قد يتبادر إلى الأذهان !

« ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا » . . والقنوت الطاعة والخضوع . والعمل الصالح هو الترجمة العملية للطاعة والخضوع . . « نؤتها أجرها مرتين » . . كما أن العذاب يضاعف للمقارفة ضعفين . « وأعتدنا لها رزقا كريما » . . فهو حاضر مهيأ ينتظرها فوق مضاعفة الأجر . فضلا من الله ومنة .

***

ثم يبين لأمهات المؤمنين اختصاصهن بما ليس لغيرهن من النساء ؛ ويقرر واجباتهن فى معاملة الناس ، وواجبهن فى عبادة الله ، وواجبهن فى بيوتهن ؛ ويحدثهن عن رعاية الله الخاصة لهذا البيت الكريم ، وحياطته وصيانته من الرجس ؛ ويذكرهن بما يتلى فى بيوتهن من آيات الله والحكمة ، مما يلقى عليهن تبعات خاصة ، ويفردهن بين نساء العالمين :

« يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن . فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ؛ وقلن قولا معروفا . وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ؛ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس — أهل البيت — ويطهركم تطهيرا . واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة . إن الله كان لطيفا خبيرا » . .

لقد جاء الإسلام فوجد المجتمع العربى — كغيره من المجتمعات فى ذلك الحين — ينظر إلى

المرأة على أنها أداة للمتاع ، وإشباع الغريزة . ومن ثم ينظر إليها من الناحية الإنسانية نظرة هابطة .

كذلك وجد في المجتمع نوعا من الفوضى في العلاقات الجنسية . ووجد نظام الأسرة مخلخلا على نحو ماسبق بيانه في السورة .

هذا وذلك إلى هبوط النظرة إلى الجنس ؛ وانحطاط الذوق الجمالي ؛ والاحتفال بالجسديات العارمة ، وعدم الالتفات إلى الجمال الرفيع الهادئ النظيف .. يبدو هـذا في أشعار الجاهليين حول جسد المرأة ، والتفاتاتهم إلى أغلظ المواضع فيه ، وإلى أغلظ معانيه !

فلما أن جاء الإسلام أخذ يرفع من نظرة المجتمع إلى المرأة ؛ ويؤكد الجانب الإنساني في علاقات الجنسين ؛ فليست هي مجرد إشباع لجوعة الجسد ، وإطفاء لفورة اللحم والدم ، إنما هي اتصال بين كائنين إنسانيين من نفس واحدة ، بينهما مودة ورحمة ، وفي اتصالهما سكن وراحة ؛ ولهذا الاتصال هدف مرتبط بإرادة الله في خلق الإنسان ، وعمارة الأرض ، وخلافة هذا الإنسان فيها بسنة الله .

كذلك أخذ يعنى بروابط الأسرة ؛ ويتخذ منها قاعدة للتنظيم الاجتماعي ؛ ويعدها المحضن الذي تنشأ فيه الأجيال وتدرج ؛ ويوفر الضمانات لحماية هذا المحضن وصيانته ، ولتطهيره كذلك من كل مايلوث جوه من المشاعر والتصورات .

والتشريع للأسرة يشغل جانبا كبيرا من تشريعات الإسلام ، وحيزا ملحوظا من آيات القرآن . وإلى جوار التشريع كان التوجيه المستمر إلى تقوية هذه القاعدة الرئيسية التي يقوم عليها المجتمع ؛ وبخاصة فيما يتعلق بالتطهر الروحي ، وبالنظافة في علاقات الجنسين ، وصيانتها من كل تبذل ، وتصفيتها من عرامة الشهوة ، حتى في العلاقات الجسدية المحضة .

وفي هذه السورة يشغل التنظيم الاجتماعي وشؤون الأسرة حيزا كبيرا . وفي هذه الآيات التي نحن بصددها حـديث إلى نساء النبي — صلى الله عليه وسـلم — وتوجيه لهن في علاقتهن بالناس ، وفي خاصة أنفسهن ، وفي علاقتهن بالله . توجيه يقول لهن الله فيه : « إنمـا يريد الله ليذهب عنكم الرجس — أهل البيت — ويطهركم تطهيرا » .

فلننظر في وسائل إذهاب الرجس ، ووسائل التطهر ، التي يحدثهن الله — سبحانه — عنها ، ويأخذهن بها . وهن أهل البيت ، وزوجات النبي — صلى الله عليه وسلم — وأطهر من عرفت الأرض من النساء . ومن عداهن من النساء أحوج إلى هـذه الوسائل من عشن في كنف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبيته الرفيع .

إنه يبدأ بإشعار نفوسهن بعظم مكانهن ، ورفيع مقامهن ، وفضلهن على النساء كافة ، وتفردهن بذلك المكان بين نساء العالمين . على أن يوفين هذا المكان حقه ، ويقمن فيه بما يقتضيه :

« يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن » . .

لستن كأحد من النساء إن اتقيتن .. فأنتن فى مكان لايشارككن فيه أحد ، ولا تشاركن فيه أحدا . ولكن ذلك إنما يكون بالتقوى . فليست المسألة مجرد قرابة من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل لابد من القيام بحق هذه القرابة فى ذات أنفسكن .

وذلك هو الحق الصارم الحاسم الذى يقوم عليه هذا الدين ؛ والذى يقرره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ينادى أهله ألا يغرهم مكانهم من قرابته ، فإنه لايملك لهم من الله شيئا : « يافاطمة ابنة محمد . ياصفية ابنة عبد المطلب . يابنى عبد المطلب . لا أملك لكم من الله شيئا . سلونى من مالى ماشئتم [(١)] » .

وفى رواية أخرى : « يامعشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار . يامعشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار . يامعشر بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار . يامعشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار . يافاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار . فإنى والله لا أملك لكم من الله شيئا ، إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها [(٢)] » .

وبعد أن يبين لهن منزلتهن التى ينلنها بحقها ، وهو التقوى ، يأخذ فى بيان الوسائل التى يريد الله أن يذهب بها الرجس عن أهل البيت ويطهرهم تطهيرا :

«فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذى فى قلبه مرض » . .

ينهاهن حين يخاطبن الأغراب من الرجال أن يكون فى نبراتهن ذلك الخضوع اللين الذى يثير شهوات الرجال ، ويحرك غرائزهم ، ويطمع مرضى القلوب ويهيج رغائبهم !

ومن هن اللواتى يحذرهن الله هذا التحذير ؟ إنهن أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمهات المؤمنين ، اللواتى لايطمع فيهن طامع ، ولايرف عليهن خاطر مريض ، فيما يبدو للعقل أول مرة . وفى أى عهد يكون هذا التحذير ؟ فى عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعهد الصفوة المختارة من البشرية فى جميع الأعصار . . ولكن الله الذى خلق الرجال والنساء يعلم أن فى صوت المرأة حين تخضع بالقول ، وتترقق فى اللفظ ، مايثير الطمع فى قلوب ، ويهيج

---

(١) أخرجه مسلم (٢) رواه مسلم والترمذى

الفتنة فى قلوب . وأن القلوب المريضة التى تثار وتطمع موجودة فى كل عهد ، وفى كل بيئة ، وتجاه كل امرأة ، ولو كانت هى زوج النبى الكريم ، وأم المؤمنين . وأنه لاطهارة من الدنس ، ولا تخلص من الرجس ، حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس .

فكيف بهذا المجتمع الذى نعيش اليوم فيه . فى عصرنا المريض الدنس الهابط ، الذى تهيج فيه الفتن وتثور فيه الشهوات ، وترف فيه الأطماع ؟ كيف بنا فى هذا الجو الذى كل شىء فيه يثير الفتنة ، ويهيج الشهوة وينبه الغريزة ، ويوقظ السعار الجنسى المحموم؟ كيف بنا فى هذا المجتمع ، فى هذا العصر ، فى هذا الجو ، ونساء يتخنثن فى نبراتهن ، ويتميعن فى أصواتهن ، ويجمعن كل فتنة الأنثى ، وكل هتاف الجنس ، وكل سعار الشهوة ؟ ثم يطلقنه فى نبرات ونغمات ؟ ! وأين هن من الطهارة ؟ وكيف يمكن أن يرف الطهر فى هذا الجو الملوث . وهن بذواتهن وحركاتهن وأصواتهن ذلك الرجس الذى يريد الله أن يذهبه عن عباده المختارين ؟ !

« وقلن قولا معروفا » . .

نهاهن من قبل عن النبرة اللينة واللهجة الخاضعة ؛ وأمرهن فى هذه أن يكون حديثهن فى أمور معروفة غير منكرة ؛ فإن موضوع الحديث قد يطمع مثل لهجة الحديث . فلا ينبغى أن يكون بين المرأة والرجل الغريب لحن ولا إيماء ، ولا هذر ولا هزل ، ولا دعابة ولا مزاح . كى لا يكون مدخلا إلى شىء آخر وراءه من قريب أو من بعيد .

والله سبحانه الخالق العليم بخلقه وطبيعة تكوينهم هو الذى يقول هذا الكلام لأمهات المؤمنين الطاهرات . كى راعينه فى خطاب أهل زمانهن خير الأزمنة على الإطلاق !

« وقرن فى بيوتكن » . .

من وقر . يقر . أى ثقل واستقر . وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقا . إنما هى إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل فى حياتهن ، وهو المقر . وماعداه استثناء طارئا لايثقلن فيه ولا يستقررن . إنما هى الحاجة تقضى . وبقدرها .

والبيت هو مثابة المرأة التى تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى . غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة ، ولا مكدودة فى غير وظيفتها التى هيأها الله لها بالفطرة .

« ولكى يهيىء الإسلام للبيت جوه ويهيىء للفراخ الناشئة فيه رعايتها ، أوجب على الرجل النفقة ، وجعلها فريضة ، كى يتاح للأم من الجهد ، ومن الوقت ، ومن هدوء البال ، ماتشرف به على هذه الفراخ الزغب ، وما تهيىء به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها . فالأم المكدودة

بالعمل للكسب ، المرهقة بمقتضيات العمل ، المقيدة بمواعيده ، المستغرقة الطاقة فيه .. لا يمكن أن تهب للبيت جوه وعطره ، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها . وبيوت الموظفات والعاملات ماتزيد على جو الفنادق والخانات ؛ وما يشيع فيها ذلك الأرج الذى يشيع فى البيت . فحقيقة البيت لاتوجد إلا أن تخلقها امرأة ، وأرج البيت لايفوح إلا أن تطلقه زوجة ، وحنان البيت لايشيع إلا أن تتولاه أم . والمرأة أو الزوجة أو الأم التى تقضى وقتها وجهدها وطاقتها الروحية فى العمل لن تطلق فى جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال .

« وإن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة . أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هى اللعنة التى تصيب الأرواح والضمائر والعقول ، فى عصور الانتكاس والشرور والضلال [1] » .

فأما خروج المرأة لغير العمل . خروجها للاختلاط ومزاولة الملاهى . والتسكع فى النوادى والمجتمعات ... فذلك هو الارتكاس فى الحمأة الذى يرد البشر إلى مراتع الحيوان !

ولقد كان النساء على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخرجن للصلاة غير ممنوعات شرعا من هذا . ولكنه كان زمان فيه عفة ، وفيه تقوى ، وكانت المرأة تخرج إلى الصلاة متلفعة لايعرفها أحد ، ولا يبرز من مفاتنها شىء . ومع هذا فقد كرهت عائشة لهن أن يخرجن بعد وفاة رسول الله — صلى الله عليه وسلم !

فى الصحيحين عن عائشة — رضى الله عنها — أنها قالت : كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم يرجعن متلفعات بمروطهن مايعرفن من الغلس .

وفى الصحيحين أيضا أنها قالت : لو أدرك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد ، كما منعت نساء بنى إسرائيل !

فماذا أحدث النساء فى حياة عائشة — رضى الله عنها — ؟ وماذا كان يمكن أن يحدث حتى ترى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان مانعهن من الصلاة ؟ ! ماذا بالقياس إلى مانراه فى هذه الأيام ؟ !

« ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى » ..

ذلك حين الاضطرار إلى الخروج ، بعد الأمر بالقرار فى البيوت . ولقد كانت المرأة فى

---

(١) من كتاب : « السلام العالمى والإسلام » فصل : « سلام البيت » ص ٥٤ — ٥٥

الجاهلية تتبرج . ولكن جميع الصور التى تروى عن تبرج الجاهلية الأولى تبدو ساذجة أو محتشمة حين تقاس إلى تبرج أيامنا هذه فى جاهليتنا الحاضرة !

قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشى بين الرجال . فذلك تبرج الجاهلية !

وقال قتادة : وكانت لهن مشية تكسر وتغنج . فنهى الله تعالى عن ذلك !

وقال مقاتل ابن حيان : والتبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده فيدارى قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها . وذلك التبرج !

وقال ابن كثير فى التفسير : كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لايواريه شىء ؛ وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها . فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئاتهن وأحوالهن .

هذه هى صور التبرج فى الجاهلية التى عالجها القرآن الكريم . ليطهر المجتمع الإسلامى من آثارها ويبعد عنه عوامل الفتنة ، ودواعى الغواية ؛ ويرفع آدابه وتصوراته ومشاعره وذوقه كذلك !

ونقول : ذوقه .. فالذوق الإنسانى الذى يعجب بمفاتن الجسد العارى ذوق بدائى غليظ . وهو من غير شك أحط من الذوق الذى يعجب بجمال الحشمة الهادىء ، ومايشى به من جمال الروح ، وجمال العفة ، وجمال المشاعر .

وهذا القياس لايخطىء فى معرفة ارتفاع المستوى الإنسانى وتقدمه . فالحشمة جميلة جمالا حقيقيا رفيعا . ولكن هذا الجمال الراقى لايدركه أصحاب الذوق الجاهلى الغليظ ، الذى لايرى إلا جمال اللحم العارى ، ولايسمع إلا هتاف اللحم الجاهر !

ويشير النص القرآنى إلى تبرج الجاهلية ، فيوحى بأن هذا التبرج من مخلفات الجاهلية . التى يرتفع عنها من تجاوز عصر الجاهلية ، وارتفعت تصوراته ومثله ومشاعره عن تصورات الجاهلية ومثلها ومشاعرها .

والجاهلية ليست فترة معينة من الزمان . إنما هى حالة اجتماعية معينة ، ذات تصورات معينة للحياة . ويمكن أن توجد هذه الحالة ، وأن يوجد هذا التصور فى أى زمان وفى أى مكان ، فيكون دليلا على الجاهلية حيث كان !

وبهذا القياس نجد أننا نعيش الآن فى فترة جاهلية عمياء ، غليظة الحس ، حيوانية التصور ، هابطة فى درك البشرية إلى حضيض مهين . وندرك أنه لاطهارة ولا زكاة ولابركة فى مجتمع

يحيا هذه الحياة ؛ ولا يأخذ بوسائل التطهر والنظافة التى جعلها الله سبيل البشرية إلى التطهر من الرجس ، والتخلص من الجاهلية الأولى ؛ وأخذ بها ، أول من أخذ ، أهل بيت النبي — صلى الله عليه وسلم — على طهارته ووضاءته ونظافته .

والقرآن الكريم يوجه نساء النبي — صلى الله عليه وسلم — إلى تلك الوسائل ؛ ثم يربط قلوبهن بالله ، ويرفع أبصارهن إلى الأفق الوضيء الذى يستمددن منه النور ، والعون على التدرج فى مراقى ذلك الأفق الوضيء :

« وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله » . .

وعبادة الله ليست بمعزل عن السلوك الاجتماعى أو الأخلاقى فى الحياة ؛ إنما هى الطريق للارتفاع إلى ذلك المستوى ؛ والزاد الذى يقطع به السالك الطريق . فلابد من صلة بالله يأتى منها المدد والزاد . ولابد من صلة بالله تطهر القلب وتزكيه . ولابد من صلة بالله يرتفع بها الفرد على عرف الناس وتقاليد المجتمع وضغط البيئة ؛ ويشعر أنه أهدى وأعلى من الناس والمجتمع والبيئة . وأنه حرى أن يقود الآخرين إلى النور الذى يراه ؛ لا أن يقوده الآخرون إلى الظلمات وإلى الجاهلية التى تغرق فيها الحياة ، كلما انحرفت عن طريق الله .

والإسلام وحدة تجمع الشعائر والآداب والأخلاق والتشريعات والنظم . . كلها فى نطاق العقيدة . ولكل منها دور تؤديه فى تحقيق هذه العقيدة ؛ وتتناسق كلها فى اتجاه واحد ؛ ومن هذا التجمع والتناسق يقوم الكيان العام لهذا الدين . وبدونهما لا يقوم هذا الكيان .

ومن ثم كان الأمر بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله ورسوله ، هو خاتمة التوجيهات الشعورية والأخلاقية والسلوكية لأهل البيت الكريم . لأنه لا يقوم شيء من تلك التوجيهات بغير العبادة والطاعة . . وكل ذلك لحكمة وقصد وهدف :

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » . .

وفى التعبير إيحاءات كثيرة ، كلها رفاف ، رفيق ، حنون . .

فهو يسميهم « أهل البيت » بدون وصف للبيت ولا إضافة . كأنما هذا البيت هو « البيت » الواحد فى هذا العالم ، المستحق لهذه الصفة . فإذا قيل « البيت » فقد عرف وحدد ووصف . ومثل هذا قيل عن الكعبة . بيت الله . فسميت البيت . والبيت الحرام . فالتعبير عن بيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كذلك تكريم وتشريف واختصاص عظيم .

وهو يقول : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ـ أهل البيت ـ ويطهركم تطهيرا » .. وفى العبارة تلطف ببيان علة التكليف وغايته . تلطف يشى بأن الله سبحانه ـ يشعرهم بأنه بذاته العلية ـ يتولى تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم . وهى رعاية علوية مباشرة بأهل هذا البيت . وحين نتصور من هو القائل ـ سبحانه وتعالى ـ رب هذا الكون . الذى قال للكون : كن . فكان . الله ذو الجلال والإكرام . المهيمن العزيز الجبار المتكبر . . حين نتصور من هو القائل ـ جل وعلا ـ ندرك مدى هذا التكريم العظيم .

وهو ـ سبحانه ـ يقول هذا فى كتابه الذى يتلى فى الملأ الأعلى ، ويتلى فى هذه الأرض ، فى كل بقعة وفى كل أوان ؛ وتتعبد به ملايين القلوب ، وتتحرك به ملايين الشفاه .

وأخيرا فإنه يجعل تلك الأوامر والتوجيهات وسيلة لإذهاب الرجس وتطهير البيت . فالتطهير من التطهر ، وإذهاب الرجس يتم بوسائل يأخذ الناس بها أنفسهم ، ويحققونها فى واقع الحياة العملى . وهذا هو طريق الإسلام .. شعور وتقوى فى الضمير . وسلوك وعمل فى الحياة . يتم بهما معا تمام الإسلام ، وتتحقق بهما أهدافه واتجاهاته فى الحياة .

ويختم هذه التوجيهات لنساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمثل مابدأها به .. بتذكيرهن بعلو مكانتهن ، وامتيازهن على النساء ، بمكانهن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبما أنعم الله عليهن فجعل بيوتهن مهبط القرآن ومنزل الحكمة ، ومشرق النور والهدى والإيمان :

« واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة . إن الله كان لطيفا خبيرا » ..

وإنه لحظ عظيم يكفى التذكير به ، لتحس النفس جلالة قدره ، ولطيف صنع الله فيه ، وجزالة النعمة التى لا يعدلها نعيم .

وهذا التذكير يجىء كذلك فى ختام الخطاب الذى بدأ بتخيير نساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة . فتبدو جزالة النعمة التى ميزهن الله بها ؛ وضآلة الحياة الدنيا بمتاعها كله وزينتها ..

* * *

وفى صدد تطهير الجماعة الإسلامية ، وإقامة حياتها على القيم التى جاء بها الإسلام . الرجال والنساء فى هذا سواء . لأنهم فى هذا المجال سواء .. يذكر الصفات التى تحقق تلك القيم فى دقة وإسهاب وتفصيل :

« إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات .. أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » ..

وهذه الصفات الكثيرة التي جمعت في هذه الآية تتعاون في تكوين النفس المسلمة . فهي الإسلام ، والإيمان ، والقنوت ، والصدق ، والصبر ، والخشوع ، والتصدق ، والصوم ، وحفظ الفروج ، وذكر الله كثيرا .. ولكل منها قيمته في بناء الشخصية المسلمة .

والإسلام : الاستسلام ، والإيمان التصديق . وبينهما صلة وثيقة أو أن أحدهما هو الوجه الثاني للآخر . فالاستسلام إنما هو مقتضى التصديق . والتصديق الحق ينشأ عنه الاستسلام .

والقنوت : الطاعة الناشئة من الإسلام والإيمان ، عن رضى داخلي لا عن إكراه خارجي .

والصدق : هو الصفة التي يخرج من لا يتصف بها من صفوف الأمة المسلمة لقوله تعالى : « إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » فالكاذب مطرود من الصف . صف هذه الأمة الصادقة .

والصبر : هو الصفة التي لا يستطيع المسلم حمل عقيدته والقيام بتكاليفها إلا بها . وهي تحتاج إلى الصبر في كل خطوة من خطواتها . الصبر على شهوات النفس ، وعلى مشاق الدعوة ، وعلى أذى الناس . وعلى التواء النفوس وضعفها وانحرافها وتلونها . وعلى الابتلاء والامتحان والفتنة . وعلى السراء والضراء ، والصبر على كلتيهما شاق عسير .

والخشوع : صفة القلب والجوارح ، الدالة على تأثر القلب بجلال الله ، واستشعار هيبته وتقواه .

والتصدق : وهو دلالة التطهر من شح النفس ، والشعور برحمة الناس ، والتكافل في الجماعة المسلمة . والوفاء بحق المال . وشكر المنعم على العطاء .

والصوم : والنص يجعله صفة من الصفات إشارة إلى اطراده وانتظامه . وهو استعلاء على الضرورات ، وصبر عن الحاجات الأولية للحياة . وتقرير للإرادة ، وتوكيد لغلبة الإنسان في هذا الكائن البشري على الحيوان .

وحفظ الفرج : ومافيه من تطهر ، وضبط لأعنف ميل وأعمقه في تركيب كيان الإنسان ، وسيطرة على الدفعة التي لا يسيطر عليها إلا تقي يدركه عون الله . وتنظيم للعلاقات ،

واستهداف لما هو أرفع من فورة اللحم والدم فى التقاء الرجل والمرأة ، وإخضاع هذا الالتقاء لشريعة الله ، وللحكمة العليا من خلق الجنسين فى عمارة الأرض وترقية الحياة .

وذكر الله كثيرا : وهو حلقة الاتصال بين نشاط الإنسان كله وعقيدته فى الله . واستشعار القلب لله فى كل لحظة ؛ فلا ينفصل بخاطر ولا حركة عن العروة الوثقى . وإشراق القلب ببشاشة الذكر ، الذى يسكب فيه النور والحياة .

هؤلاء الذين تتجمع فيهم هذه الصفات ، المتعاونة فى بناء الشخصية المسلمة الكاملة . . هؤلاء « أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » . .

وهكذا يعمم النص فى الحديث عن صفة المسلم والمسلمة ومقومات شخصيتهما ، بعد ما خصص نساء النبى — صلى الله عليه وسلم — فى أول هذا الشوط من السورة . وتذكر المرأة فى الآية بجانب الرجل كطرف من عمل الإسلام فى رفع قيمة المرأة ، وترقية النظرة إليها فى المجتمع ، وإعطائها مكانها إلى جانب الرجل فيما هما فيه سواء من العلاقة بالله ؛ ومن تكاليف هذه العقيدة فى التطهر والعبادة والسلوك القويم فى الحياة . .

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ؛ وَمَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِيناً .

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ؛ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ . فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ، وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا .

« مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ ، سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً * ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ ٱللَّهِ ، وَيَخْشَوْنَهُ ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا ٱللَّهَ ، وَكَفَى بِٱللَّهِ حَسِيباً * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَـٰكِنْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلا » . .

هذا الدرس شوط جديد فى إعادة تنظيم الجماعة المسلمة على أساس التصور الإسلامى . وهو يختص ابتداء بإبطال نظام التبنى الذى ورد الحديث عنه فى أول السورة . وقد شاء الله أن ينتدب لإبطال هذا التقليد من الناحية العملية رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كانت العرب تحرم مطلقة الابن بالتبنى حرمة مطلقة الابن من النسب ؛ وما كانت تطيق أن تحل مطلقات الأدعياء عملا ، إلا أن توجد سابقة تقرر هذه القاعدة الجديدة . فانتدب الله رسوله ليحمل هذا العبء فيما يحمل من أعباء الرسالة . وسنرى من موقف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذه التجربة أنه ما كان سواه قادرا على احتمال هـذا العبء الجسيم ، ومواجهة المجتمع بمثل هـذه الخارقة لمألوفه العميق ! وسنرى كذلك أن التعقيب على الحادث كان تعقيبا طويلا لربط النفوس بالله ولبيان عـلاقة المسلمين بالله وعلاقتهم بنبيهم ، ووظيفة النبى بينهم .. كل ذلك لتيسير الأمر على النفوس ، وتطييب القلوب لتقبل أمر الله فى هذا التنظيم بالرضى والتسليم .

ولقد سبق الحديث عن الحادث تقرير قاعدة أن الأمر لله ورسوله ، وأنه ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . مما يوحى كذلك بصعوبة هذا الأمر الشاق المخالف لمألوف العرب وتقاليدهم العنيفة .

* * *

« وما كان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » . .

روى أن هـذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش ـ رضى الله عنهـا ـ حينما أراد النبى

ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحطم الفوارق الطبقية الموروثة في الجماعة المسلمة ؛ فيرد الناس سواسية كأسنان المشط . لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . وكان الموالي [1] ـ وهم الرقيق المحرر ـ طبقة أدنى من طبقة السادة . ومن هؤلاء كان زيد ابن حارثة مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي تبناه . فأراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحقق المساواة الكاملة بتزويجه من شريفة من بني هاشم ، قريبته ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب بنت جحش ؛ ليسقط تلك الفوارق الطبقية بنفسه . في أسرته . وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعي من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة ، وتسير البشرية كلها على هداه في هذا الطريق .

روى ابن كثير في التفسير قال : قال العوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » . الآية . وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انطلق ليخطب على فتاه زيد ابن حارثة ـ رضى الله عنه ـ فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ـ رضى الله عنها ـ فخطبها ، فقالت : لست بناكحته ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « بلى فانكحيه » . قالت : يارسول الله . أؤامر في نفسي ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا » .. الآية . قالت : قد رضيته لي يارسول الله منكحا ؟ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « نعم » ! قالت : إذن لا أعصى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أنكحته نفسي !

وقال ابن لهيعة عن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : خطب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب بنت جحش لزيد ابن حارثة ـ رضى الله عنه ـ فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسبا ـ وكانت امرأة فيها حدة ـ فأنزل الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ... » الآية كلها .

وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل ابن حيان أنها نزلت في زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ حين خطبها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مولاه زيد ابن حارثة ـ رضى الله عنه ـ فامتنعت ثم أجابت .

وروى ابن كثير في التفسير كذلك رواية أخرى قال : وقال عبد الرحمان ابن زيد ابن أسلم : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط ـ رضى الله عنها ـ وكانت أول من هاجر

---

(١) قد تطلق هذه الكلمة على غير هذه الطبقة . فقد كانت قبيلة تكون موالي قبيلة ، تنصرها، وتتكافل معها في الديات والتعويضات . على غير معنى الرق والعتق .

من النساء — يعنى بعد صلح الحديبية — فوهبت نفسها للنبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : « قد قبلت » . فزوجها زيد ابن حارثة — رضى الله عنه — ( يعنى والله أعلم بعد فراقه زينب ) فسخطت هي وأخوها ، وقال : إنما أردنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فزوجنا عبده ! قال : فنزل القرآن : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا » إلى آخر الآية . قال : وجاء أمر أجمع من هذا : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » قال : فذاك خاص وهذا أجمع .

وفي رواية ثالثة : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ثابت البناني ، عن أنس — رضى الله عنه — قال : خطب النبي — صلى الله عليه وسلم — على جليبيب [1] امرأة من الأنصار إلى أبيها . فقال : حتى أستأمر أمها . فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — : « فنعم إذن » . قال : فانطلق الرجل إلى امرأته ، فذكر ذلك لها ، فقالت : لاها الله ! إذن ماوجد رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — إلا جليبيبا ، وقد منعناها من فلان وفلان ؟ قال : والجارية في سترها تسمع . قال : فانطلق الرجل يريد أن يخبر رسول الله — صلى الله عليه وسلم بذلك . فقالت الجارية : أتريدون أن تردوا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أمره ؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه . قال : فكأنها جلت عن أبويها . وقالا : صدقت . فذهب أبوها إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : إن كنت قد رضيته فقد رضيناه . قال — صلى الله عليه وسلم — : « فإني قد رضيته » . قال : فزوجها .. ثم فزع أهل المدينة ، فركب جليبيب ، فوجدوه قد قتل ، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم . قال أنس — رضى الله عنه — فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت بالمدينة ..

فهذه الروايات — إن صحت — تعلق هذه الآية بحادث زواج زينب من زيد — رضى الله عنهما — أو زواجه من أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط .

وقد أثبتنا الرواية الثالثة عن جليبيب لأنها تدل على منطق البيئة الذى توكل الإسلام بتحطيمه ، وتولى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تغييره بفعله وسنته . وهو جزء من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة على أساس منطق الإسلام الجديد ، وتصوره للقيم في هذه الأرض ، وانطلاق النزعة التحررية القائمة على منهج الإسلام ، المستمدة من روحه العظيم .

ولكن نص الآية أعم من أى حادث خاص . وقد تكون له علاقة كذلك بإبطال آثار التبني ، وإحلال مطلقات الأدعياء ، وحادث زواج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من

---

(١) وهو من الموالى .

زينب – رضى الله عنها – بعد طلاقها من زيد . الأمر الذى كانت له ضجة عظيمة فى حينه . والذى مازال يتخذه بعض أعداء الإسلام تكأة للطعن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى اليوم ، ويلفقون حوله الأساطير !

وسواء كان سبب نزول الآية ماجاء فى تلك الروايات ، أو كانت بصدد زواج الرسول – صلى الله عليه وسلم – من زينب – رضى الله عنها – فإن القاعدة التى تقررها الآية أعم وأشمل ، وأعمق جدا فى نفوس المسلمين وحياتهم وتصورهم الأصيل .

فهذا المقوّم من مقومات العقيدة هو الذى استقر فى قلوب تلك الجماعة الأولى من المسلمين استقرارا حقيقيا ؛ واستيقنته أنفسهم ، وتكيفت به مشاعرهم .. هذا المقوم يتلخص فى أنه ليس لهم فى أنفسهم شىء ؛ وليس لهم من أمرهم شىء . إنما هم وماملكت أيديهم لله . يصرفهم كيف يشاء ، ويختار لهم مايريد . وإن هم إلا بعض هذا الوجود الذى يسير وفق الناموس العام . وخالق هذا الوجود ومدبره يحركهم مع حركة الوجود العام ؛ ويقسم لهم دورهم فى رواية الوجود الكبيرة ؛ ويقرر حركاتهم على مسرح الوجود العظيم . وليس لهم أن يختاروا الدور الذى يقومون به ، لأنهم لايعرفون الرواية كاملة ؛ وليس لهم أن يختاروا الحركة التى يحبونها لأن مايحبونه قد لايستقيم مع الدور الذى خصص لهم ! وهم ليسوا أصحاب الرواية ولاالمسرح ؛ وإن هم إلا أجراء ، لهم أجرهم على العمل ، وليس لهم ولاعليهم فى النتيجة !

عندئذ أسلموا أنفسهم حقيقة لله . أسلموها بكل مافيها ؛ فلم يعد لهم منها شىء . وعندئذ استقامت نفوسهم مع فطرة الكون كله ؛ واستقامت حركاتهم مع دورته العامة ؛ وساروا فى فلكهم كما تسير تلك الكواكب والنجوم فى أفلاكها ، لاتحاول أن تخرج عنها ، ولا أن تسرع أو تبطىء فى دورتها المتناسقة مع حركة الوجود كله .

وعندئذ رضيت نفوسهم بكل مايأتى به قدر الله، لشعورهم الباطن الواصل بأن قدر الله هو الذى يصرف كل شىء ، وكل أحد ، وكل حادث ، وكل حالة . واستقبلوا قدر الله فيهم بالمعرفة المدركة المريحة الواثقة المطمئنة .

وشيئا فشيئا لم يعودوا يحسون بالمفاجأة لقدر الله حين يصيبهم ، ولابالجزع الذى يعالج بالتجمل ؛ أو بالألم الذى يعالج بالصبر . إنما عادوا يستقبلون قدر الله استقبال العارف المنتظر المرتقب لأمر مألوف فى حسه ، معروف فى ضميره ، ولا يثير مفاجأة ولا رجفة ولاغرابة !

ومن ثم لم يعودوا يستعجلون دورة الفلك ليقضوا أمراً هم يريدون قضاءه ، ولم يعودوا

يستبطئون الأحداث لأن لهم أربا يستعجلون تحقيقه ، ولو كان هذا الأرب هو نصر دعوتهم وتمكينها ! إنما ساروا فى طريقهم مع قدر الله ، ينتهى بهم إلى حيث ينتهى ، وهم راضون مستروحون ، يبذلون ما يملكون من أرواح وجهود وأموال فى غير عجلة ولاضيق ، وفى غير من ولا غرور ، وفى غير حسرة ولاأسف . وهم على يقين أنهم يفعلون ماقدر الله لهم أن يفعلوه ؛ وأن مايريده الله هو الذى يكون ، وأن كل أمر مرهون بوقته وأجله المرسوم .

إنه الاستسلام المطلق ليد الله تقود خطاهم ، وتصرف حركاتهم ؛ وهم مطمئنون لليد التى تقودهم ، شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين ، سائرون معها فى بساطة ويسر ولين .

وهم — مع هذا — يعملون مايقدرون عليه ، ويبذلون مايملكون كله ، ولا يضيعون وقتا ولا جهدا ، ولايتركون حيلة ولا وسيلة . ثم لايتكلفون مالا يطيقون ، ولا يحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص ، ومن ضعف وقوة ؛ ولايدعون مالا يجدونه فى أنفسهم من مشاعر وطاقات ، ولايحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ولا أن يقولوا غير مايفعلون .

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله ، والعمل الجاهد بكل مافى الطاقة ، والوقوف المطمئن عند ما يستطيعون .. هذا التوازن هو السمة التى طبعت حياة تلك المجموعة الأولى وميزتها ؛ وهى التى أهلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التى تنوء بالجبال !

واستقرار ذلك المقوم الأول فى أعماق الضمائر هو الذى كفل لتلك الجماعة الأولى تحقيق تلك الخوارق التى حققتها فى حياتها الخاصة ، وفى حياة المجتمع الإنسانى إذ ذاك . وهو الذى جعل خطواتها وحركاتها تتناسق مع دورة الأفلاك ، وخطوات الزمان ، ولا تحتك بها أو تصطدم ، فتتعوق أو تبطىء نتيجة الاحتكاك والاصطدام . وهو الذى بارك تلك الجهود ، فإذا هى تثمر ذلك الثمر الحلو الكثير العظيم فى فترة قصيرة من الزمان .

ولقد كان ذلك التحول فى نفوسهم بحيث تستقيم حركتها مع حركة الوجود ، وفق قدر الله المصرف لهذا الوجود . . كان هذا التحول فى تلك النفوس هو المعجزة الكبرى التى لايقدر عليها بشر ؛ إنما تتم بإرادة الله المباشرة التى أنشأت الأرض والسماوات ، والكواكب والأفلاك؛ ونسقت بين خطاها ودوراتها ذلك التنسيق الإلهى الخاص .

وإلى هذه الحقيقة تشير هذه الآيات الكثيرة فى القرآن .. حيث يقول الله تبارك وتعالى : « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » . . أو يقول : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » . . أو يقول : « إن الهدى هدى الله » . . فذلك هو الهدى

بحقيقته الكبيرة ومعناه الواسع . هدى الإنسان إلى مكانه فى هيكل هـذا الوجود ؛ وتنسيق خطاه مع حركة هذا الوجود .

ولن يؤتى الجهد كامل ثماره إلا حين يستقيم القلب على هدى الله بمعناه ؛ وتستقيم حركة الفرد مع دورة الوجود ؛ ويطمئن الضمير إلى قدر الله الشامل الذى لايكون فى الوجود أمر إلا وفق مقتضاه .

ومن هـذا البيان يتجلى أن هذا النص القرآنى : « وماكان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . . أشمـل وأوسع وأبعد مدى من أى حادث خاص يكون قد نزل فيه . وأنه يقرر كلية أساسية . أو الـكلية الأساسية . فى منهج الإسلام !

* * *

ثم يجىء الحديث عن حادث زواج النبى — صلى الله عليه وسلم — من زينب بنت جحش ، وما سبقه وماتلاه من أحكام وتوجيهات :

« وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ؛ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . فلما قضى زيد منها وطرا زوجنا كها لـكى لايـكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا . ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له . سنة الله فى الذين خلوا من قبل . وكان أمر الله قدرا مقدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولايخشون أحدا إلا الله . وكفى بالله حسيبا . ما كان محمد أبا أحد من رجالـكم ، ولـكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما » . .

مضى فى أول السورة إبطال تقليد التبنى ؛ ورد الأدعياء إلى آبائهم ، وإقامـة العلاقات العائلية على أساسها الطبيعى : « وماجعل أدعياءكم أبناءكم . ذلـكم قولـكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانـكم فى الدين ومواليـكم . وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولـكن ماتعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيما ... » .

ولـكن نظام التبنى كانت له آثار واقعية فى حياة الجمـاعة العربية ؛ ولم يكن إبطال هـذه الآثار الواقعية فى حياة المجتمع ليمضى بالسهولة التى يمضى بها إبطال تقليد التبنى ذاته . فالتقاليد الاجتماعيـة أعمق أثرا فى النفوس . ولابد من سوابق عمليـة مضادة . ولابد أن تستقبل

هـذه السوابق أول أمرها بالاستنكار ؛ وأن تكون شديدة الوقع على الكثيرين .

وقد مضى أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ زوج زيد ابن حارثة ــ الذى كان متبناه ، وكان يدعى زيد ابن محمد ثم دعى إلى أبيه ــ من زينب بنت جحش ، ابنة عمة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليحطم بهذا الزواج فوارق الطبقات الموروثة ، ويحقق معنى قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ويقرر هـذه القيمة الإسلامية الجديدة بفعل عملى واقعى .

ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك ــ فيما يحمل من أعباء الرسالة ــ مؤنة إزالة آثار نظام التبنى ؛ فيتزوج من مطلقة متبناه زيد ابن حارثة . ويواجه المجتمع بهـذا العمل ، الذى لا يستطيع أحد أن يواجه المجتمع به ، على الرغم من إبطال عادة التبنى فى ذاتها !

وألهم الله نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن زيدا سيطلق زينب ؛ وأنه هو سيتزوجها ، للحكمة التى قضى الله بها . وكانت العلاقات بين زيد وزينب قد اضطربت ، وعادت توحى بأن حياتهما لن تستقيم طويلا .

وجاء زيد مرة بعد مرة يشكو إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ اضطراب حياته مع زينب ؛ وعدم استطاعته المضى معها . والرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ على شجاعته فى مواجهة قومه فى أمر العقيدة دون لجلجة ولا خشية ــ يحس ثقل التبعة فيما ألهمه الله من أمر زينب ؛ ويتردد فى مواجهة القوم بتحطيم ذلك التقليد العميق ؛ فيقول لزيد ( الذى أنعم الله عليه بالإسلام وبالقرب من رسوله وبحب الرسول له ، ذلك الحب الذى يتقدم به فى قلبه على كل أحد بلا استثناء . والذى أنعم عليه الرسول بالعتق والتربية والحب ) .. يقول له : « أمسك عليك زوجك واتق الله » .. ويؤخر بهذا مواجهة الأمر المظيم الذى يتردد فى الخروج به على الناس . كما قال الله تعالى : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ! » .. وهذا الذى أخفاه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى نفسه ، وهو يعلم أن الله مبديه ، هو ما ألهمه الله أن سيفعله . ولم يكن أمرا صريحا من الله . وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله . ولجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التى يتوقعها من إعلانه . ولكنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان أمام إلهام يجده فى نفسه ، ويتوجس فى الوقت ذاته من مواجهته ، ومواجهة الناس به . حتى أذن الله بكونه . فطلق زيد زوجه فى النهاية . وهو لا يفكر لا هو ولا زينب ، فيما سيكون بعد . لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن لمحمد لا تحل له . حتى بعد إبطال عادة التبنى فى ذاتها . ولم يكن قد نزل بعد إحلال مطلقات الأدعياء . إنما كان حادث زواج النبى بها فيما

بعد هو الذى قرر هذه القاعدة . بعدما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار .

وفى هذا مايهدم كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث ؛ والتى تشبث بها أعداء الإسلام قديما وحديثا ، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات !

إنما كان الأمر كما قال الله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ، لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » . . وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة حملها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيما حمل ؛ وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية . حتى ليتردد فى مواجهته بها وهو الذى لم يتردد فى مواجهته بعقيدة التوحيد ، وذم الآلهة والشركاء ؛ وتخطئة الآباء والأجداد !

« وكان أمر الله مفعولا » . . لامرد له ، ولا مفر منه . واقعا محققا لاسبيل إلى تخلفه ولا إلى الحيدة عنه .

وكان زواجه — صلى الله عليه وسلم — من زينب — رضى الله عنها — بعد انقضاء عدتها . أرسل إليها زيدا زوجها السابق . وأحب خلق الله إليه . أرسله إليها ليخطبها عليه .

عن أنس — رضى الله عنه — قال : لما انقضت عدة زينب — رضى الله عنها — قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لزيد ابن حارثة . « اذهب فاذكرها علىّ » فانطلق حتى أتاها وهى تخمر عجينها . قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، وأقول : إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذكرها ! فوليتها ظهرى ، ونكصت على عقبى ، وقلت : يازينب . أبشرى . أرسلنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى عز وجل . فقامت إلى مسجدها . ونزل القرآن . وجاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فدخل عليها بغير إذن [١] . . .

وقد روى البخارى — رحمه الله — عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : إن زينب بنت جحش — رضى الله عنها — كانت تفخر على أزواج النبى — صلى الله عليه وسلم — فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله — تعالى — من فوق سبع سماوات .

ولم تمر المسألة سهلة ، فلقد فوجىء بها المجتمع الإسلامى كله ؛ كما انطلقت ألسنة المنافقين تقول : تزوج حليلة ابنه !

---

(١) رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم والنسائى من طرق عن سليمان ابن المغيرة . .

ولما كانت المسألة مسألة تقرير مبدأ جديد فقد مضى القرآن يؤكدها ؛ ويزيل عنصر الغرابة فيها ، ويردها إلى أصولها البسيطة المنطقية التاريخية :

« ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له » . .

فقد فرض له أن يتزوج زينب ، وأن يبطل عادة العرب فى تحريم أزواج الأدعياء . وإذن فلا حرج فى هذا الأمر ، وليس النبي — صلى الله عليه وسلم — فيه بدعا من الرسل .

« سنة الله فى الذين خلوا من قبل » . .

فهو أمر يمضى وفق سنة الله التى لاتتبدل . والتى تتعلق بحقائق الأشياء ، لابما يحوطها من تصورات وتقاليد مصطنعة لاتقوم على أساس .

« وكان أمر الله قدرا مقدورا » . .

فهو نافذ مفعول ، لايقف فى وجهه شىء ولاأحد . وهومقدر بحكمة وخبرة ووزن، منظور فيه إلى الغاية التى يريدها الله منه . ويعلم ضرورتها وقدرها وزمانها ومكانها . وقد أمر الله رسوله أن يبطل تلك العادة ويمحو آثارها عمليا ، ويقرر بنفسه السابقة الواقعية . ولم يكن بد من نفاذ أمر الله .

وسنة الله هذه قد مضت فى الذين خلوا من قبل من الرسل :

« الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله » . .

فلا يحسبون للخلق حسابا فيما يكلفهم الله به من أمور الرسالة ، ولا يخشون أحدا إلا الله الذى أرسلهم للتبليغ والعمل والتنفيذ .

« وكفى بالله حسيبا » . .

فهو وحده الذى يحاسبهم ، وليس للناس عليهم من حساب .

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » فزينب ليست حليلة ابنه ، وزيد ليس ابن محمد . إنما هو ابن حارثة . ولا حرج إذن فى الأمر حين ينظر إليه بعين الحقيقة الواقعة .

والعلاقة بين محمد — صلى الله عليه وسلم — وبين جميع المسلمين — ومنهم زيد ابن حارثة — هى علاقة النبي بقومه ، وليس هو أبا لأحد منهم :

« ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . .

ومن ثم فهو يشرع الشرائع الباقية ، لتسير عليها البشرية ؛ وفق آخر رسالة السماء إلى الأرض ، التي لا تبديل فيها بعد ذلك ولا تغيير .

« وكان الله بكل شيء عليما » . .

فهو الذي يعلم مايصلح لهذه البشرية ، وما يصلحها ؛ وهو الذي فرض على النبي مافرض ، واختار له ما اختار . ليحل للناس أزواج أدعيائهم ، إذا ماقضوا منهن وطرا ، وانتهت حاجتهم منهن ، وأطلقوا سراحهن .. قضى الله هذا وفق علمه بكل شيء . ومعرفته بالأصلح والأوفق من النظم والشرائع والقوانين ؛ ووفق رحمته وتخيره للمؤمنين .

* * *

ثم يمضي السياق القرآني في ربط القلوب بهذا المعنى الأخير ، ووصلهم بالله الذي فرض على رسوله مافرض ، واختار للأمة المسلمة ما اختار ؛ يريد بها الخير ، والخروج من الظلمات إلى النور :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام . وأعد لهم أجرا كريما » . .

وذكر الله اتصال القلب به ، والاشتغال بمراقبته ؛ وليس هو مجرد تحريك اللسان . وإقامة الصلاة ذكر لله . بل إنه وردت آثار تكاد تخصص الذكر بالصلاة :

روى أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الأعمش عن الأغر أبي مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين ، كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات » . .

وإن كان ذكر الله أشمل من الصلاة . فهو يشمل كل صورة يتذكر فيها العبد ربه ، ويتصل به قلبه . سواء جهر بلسانه بهذا الذكر أم لم يجهر . والمقصود هو الاتصال المحرك الموحي على أية حال .

وإن القلب ليظل فارغا أو لاهيا أو حائرا حتى يتصل بالله ويذكره ويأنس به . فإذا هو مليء جاد ، قار ، يعرف طريقه ، ويعرف منهجه ، ويعرف من أين وإلى أين ينقل خطاه !

ومن هنا يحض القرآن كثيرا ، وتحض السنة كثيرا ، على ذكر الله . ويربط القرآن بين

هذا الذكر وبين الأوقات والأحوال التى يمر بها الإنسان ، لتكون الأوقات والأحوال مذكرة بذكر الله ومنبهة إلى الاتصال به حتى لا يغفل القلب ولا ينسى :

« وسبحوه بكرة وأصيلا » . .

وفى البكرة والأصيل خاصة ما يستجيش القلوب إلى الاتصال بالله ، مغير الأحوال ، ومبدل الظلال ؛ وهو باق لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يحول ولا يزول . وكل شىء سواه يتغير ويتبدل ، ويدركه التحول والزوال .

وإلى جانب الأمر بذكر الله وتسبيحه ، إشعار القلوب برحمة الله ورعايته ، وعنايته بأمر الخلق وإرادة الخير لهم ؛ وهو الغنى عنهم ، وهم الفقراء المحاويج ، لرعايته وفضله :

« هو الذى يصلى عليكم وملائكته ، ليخرجكم من الظلمات إلى النور . وكان بالمؤمنين رحيما » . .

وتعالى الله ، وجلت نعمته ، وعظم فضله ، وتضاعفت منته ؛ وهو يذكر هؤلاء العباد الضعاف المحاويج الفانين ، الذين لا حول لهم ولا قوة ، ولا بقاء لهم ولا قرار . يذكرهم ، ويعنى بهم ، ويصلى عليهم هو وملائكته ، ويذكرهم بالخير فى الملأ الأعلى فيتجاوب الوجود كله بذكرهم ، كما قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه (١) » . .

ألا إنها لعظيمة لا يكاد الإدراك يتصورها . وهو يعلم أن هذه الأرض ومن عليها وما عليها إن هى إلا ذرة صغيرة زهيدة بالقياس إلى تلك الأفلاك الهائلة . وما الأفلاك وما فيها ومن فيها إلا بعض ملك الله الذى قال له : كن . فكان !

« هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور » . .

ونور الله واحد متصل شامل ؛ وما عداه ظلمات تتعدد وتختلف . وما يخرج الناس من نور الله إلا ليعيشوا فى ظلمة من الظلمات ، أو فى الظلمات مجتمعة ؛ وما ينقذهم من الظلام إلا نور الله الذى يشرق فى قلوبهم ، ويغمر أرواحهم ، ويهديهم إلى فطرتهم . وهى فطرة هذا الوجود . ورحمة الله بهم وصلاة الملائكة ودعاؤها لهم ، هى التى تخرجهم من الظلمات إلى النور حين تتفتح قلوبهم للإيمان : « وكان بالمؤمنين رحيما » . .

---

(١) أخرجه البخارى .

ذلك أمرهم فى الدنيا دار العمل . فأما أمرهم فى الآخرة دار الجزاء ، فإن فضل الله لايتخلى عنهم ، ورحمته لاتتركهم ؛ ولهم فيها الكرامة والحفاوة والأجر الكريم :

« تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجرا كريما » ..

سلام من كل خوف ، ومن كل تعب ، ومن كل كد .. سلام يتلقونه من الله تحمله إليهم الملائكة . وهم يدخلون عليهم من كل باب ، يبلغونهم التحية العلوية . إلى جانب ما أعد لهم من أجر كريم .. فياله من تكريم !

فهذا هو ربهم الذى يشرع لهم ويختار . فمن ذا الذى يكره هذا الاختيار ؟ !

***

فأما النبى الذى يبلغهم اختيار الله لهم ؛ ويحقق بسنته العملية ما اختاره الله وشرعه للعباد ، فيلتفت السياق التفاتة كذلك إلى بيان وظيفته وفضله على المؤمنين فى هذا المقام :

« يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » . .

فوظيفة النبى — صلى الله عليه وسلم — فيهم أن يكون « شاهدا » عليهم ؛ فليعملوا بما يحسن هذه الشهادة التى لاتكذب ولاتزور ، ولاتبدل ، ولاتغير . وأن يكون « مبشرا » لهم بما ينتظر العاملين من رحمة وغفران ، ومن فضل وتكريم . وأن يكون « نذيرا » للغافلين بما ينتظر المسيئين من عذاب ونكال ، فلا يؤخذوا على غرة ، ولايعذبوا إلا بعد إنذار . « وداعيا إلى الله » .. لا إلى دنيا ، ولا إلى مجد ، ولا إلى عزة قومية ، ولا إلى عصبية جاهلية ، ولا إلى مغنم ، ولا إلى سلطان أو جاه . ولكن داعيا إلى الله . فى طريق واحد يصل إلى الله « بإذنه » .. فما هو بمبتدع ، ولا بمتطوع ، ولا بقائل من عنده شيئا . إنما هو إذن الله له وأمره لايتعداه . « وسراجا منيرا » . . يجلو الظلمات ، ويكشف الشبهات ، وينير الطريق ، نورا هادئا هاديا كالسراج المنير فى الظلمات .

وهكذا كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وماجاء به من النور . جاء بالتصور الواضح البين النير لهذا الوجود ، ولعلاقة الوجود بالخالق ، ولمكان الكائن الإنسانى من هذا الوجود وخالقه ، وللقيم التى يقوم عليها الوجود كله ، ويقوم عليها وجود هذا الإنسان فيه ؛ وللمنشأ والمصير ، والهدف والغاية ، والطريق والوسيلة . فى قول فصل لاشبهة فيه ولا غموض .

وفى أسلوب يخاطب الفطرة خطابا مباشرا وينفذ إليها من أقرب السبل وأوسع الأبواب وأعمق المسالك والدروب !

ويكرر ويفصل فى وظيفة الرسول مسألة تبشير المؤمنين : « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » .. بعدما أجملها فى قوله : « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا » .. زيادة فى بيان فضل الله ومنته على المؤمنين ، الذين يشرع لهم على يدى هذا النبى ، مايؤول بهم إلى البشرى والفضل الكبير .

وينهى هذا الخطاب للنبى — صلى الله عليه وسلم — بألا يطيع الكافرين والمنافقين ، وألا يحفل أذاهم له وللمؤمنين ، وأن يتوكل على الله وحده وهو بنصره كفيل :

« ولا تطع الكافرين والمنافقين ، ودع أذاهم ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » ..

وهو ذات الخطاب الوارد فى أول السورة ، قبل ابتداء التشريع والتوجيه ، والتنظيم الاجتماعى الجديد . بزيادة توجيه النبى — صلى الله عليه وسلم — ألا يحفل أذى الكافرين والمنافقين ؛ وألا يتقيه بطاعتهم فى شىء أو الاعتماد عليهم فى شىء . فالله وحده هو الوكيل « وكفى بالله وكيلا » ..

* * *

وهكذا يطول التقديم والتعقيب على حادث زينب وزيد ، وإحلال أزواج الأدعياء ، والمثل الواقعى الذى كلفه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مما يشى بصعوبة هذا الأمر ، وحاجة النفوس فيه إلى تثبيت الله وبيانه ، وإلى الصلة بالله والشعور بما فى توجيهه من رحمة ورعاية . كى تتلقى ذلك الأمر بالرضى والقبول والتسليم ..

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ، فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا .

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَبَنَاتِ عَمِّكَ ، وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ، وَبَنَاتِ خَالِكَ ، وَبَنَاتِ

خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ، وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً ، إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ، إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ، خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ، لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً * تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ . ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً * لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ، وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ ؛ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ، وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ؛ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ . إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ؛ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ . ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً * إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً * لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ ، وَلَا أَبْنَائِهِنَّ ، وَلَا إِخْوَانِهِنَّ ، وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ ، وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ ، وَلَا نِسَائِهِنَّ ، وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ؛ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً .

« إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً * إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً .

« يا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ : يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ . ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً * لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ ، وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ ، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ ، أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا » .

هذا الشوط من السورة يتضمن فى أوله حكما عاما من أحكام القرآن التشريعية فى تنظيم شؤون الأسرة . ذلك حكم المطلقات قبل الدخول . يجيء بعده أحكام خاصة لتنظيم حياة النبي — صلى الله عليه وسلم — حياته الزوجية الخاصة مع نسائه وعلاقات نسائه كذلك بقية الرجال ، وعلاقة المسلمين ببيت الرسول . وكرامة الرسول وبيته على الله وعلى ملائكته والملأ الأعلى .. وينتهى بحكم عام يشترك فيه نساء النبي وبناته ونساء المؤمنين ، يأمرهن فيه بإرخاء جلابيبهن عند الخروج لقضاء الحاجة حتى يتميزن بهذا الزى السابغ ويعرفن ، فلا يتعرض لهن ذوو السيرة السيئة من المنافقين والمرجفين والفساق الذين كانوا يتعرضون للنساء فى المدينة ! ويختم بتهديد هؤلاء المنافقين والمرجفين بالإجلاء عن المدينة مالم ينتهوا عن إيذاء المؤمنات وإشاعة الفساد ..

وهذه التشريعات والتوجيهات طرف من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة على أساس التصور الإسلامى . فأما ما يختص بحياة الرسول الشخصية ، فقد شاء الله أن يجعل حياة هذا البيت صفحة معروضة للأجيال ، فضمنها هذا القرآن الباقى ، المتلو فى كل زمان ومكان ؛ وهى فى الوقت ذاته آية تكريم الله — سبحانه — لهذا البيت ، الذى يتولى بذاته العلية أمره ، ويعرضه للبشرية كافة فى قرآنه الخالد على الزمان ..

* * *

« يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ، فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا » ..

ولقد سبق فى سورة البقرة بيان حكم المطلقات قبل الدخول فى قوله تعالى :

« لاجناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على

الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ، متاعاً بالمعروف حقا على المتقين . وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقـدة النـكاح . وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير » ..

فالمطلقة قبل الدخول إن كان قد فرض لهـا مهر ، فلها نصف ذلك المهر المسمى . وإن لم يذكر لها مهر فلها متاع يتبع قدرة المطلق سعة وضيقا . . وقد زاد هنا فى آية الأحزاب بيان حكم العدة لهذه المطلقة وهو مالم يذكر فى آيتى البقرة . فقرر أن لاعدة عليها . إذ أنه لم يكن دخول بها . والعدة إنما هى استبراء للرحم من الحمل ، وتأكد من أنها خالية من آثار الزواج السابق ، كى لاتختلط الأنساب ، ولا ينسب إلى رجل ماليس منه ، ويسلب رجل ما هو منه فى رحم المطلقة . فأما فى حالة عدم الدخول فالرحم بريئة ، ولاعدة إذن ولا انتظار : « فما لـكم عليهن من عدة تعتدونها » . . « فمتعوهن » إن كان هناك مهر مسمى فبنصف هذا المهر ، وإن لم يكن فمتاع مطلق يتبع حالة الزوج المـالية . « وسرحوهن سراحا جميلا » .. لاعضل فيه ولا أذى . ولاتعنت ولارغبة فى تعويقهن عن استئناف حياة أخرى جديدة .

وهذا حكم عام جاء فى سياق السورة فى صدد تنظيم الحياة العامة للجماعة المسلمة .

***

بعد ذلك يبين الله لرسوله ــ صـلى الله عليه وسلم ــ مايحل له من النساء ، ومافى ذلك من خصوصية لشخصه ولأهل بيته ، بعدما نزلت آية سورة النساء التى تجعل الحد الأقصى للأزواج أربعا : « فانـكحوا ماطاب لـكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » . .

وكان فى عصمة النبى فى هـذا الوقت تسع نساء ، تزوج بكل منهن لمعنى خاص . عائشة وحفصة ابنتا صاحبيه أبى بكر وعمر . وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وزينب بنت خزيمة من المهاجرات اللواتى فقدن أزواجهن وأراد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ تكريمهن ، ولم يكن ذوات جمال ولاشباب ، إنما كان معنى التكريم لهن خالصا فى هذا الزواج . وزينب بنت جحش وقد علمنا قصة زواجها ، وقد كان هناك تعويض لهـا كذلك عن طلاقها من زيد الذى زوجها رسول الله منه فلم تفلح الزيجة لأمر قضاه الله تعالى ، وعرفناه فى قصتها . ثم جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وصفيـة بنت حيى ابن أخطب . وكانتا من السبى فأعتقهما رسول الله وتزوج بهما الواحدة تلو الأخرى ، توثيقا لعلاقته بالقبائل ، وتـكريما لهما ، وقد أسلمتا بعدما نزل بأهلهما من الشدة .

وكن قد أصبحن « أمهات المؤمنين » ونلن شرف القرب من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واخترن الله ورسوله والدار الآخرة بعد نزول آيتي التخيير . فكان صعبا على نفوسهن أن يفارقهن رسول الله بعد تحديد عدد النساء . وقد نظر الله إليهن ، فاستثنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من ذلك القيد ، وأحل له استبقاء نسائه جميعا فى عصمته ، وجعلهن كلهن حلا له ، ثم نزل القرآن بعد ذلك بألا يزيد عليهن أحدا ، ولا يستبدل بواحدة منهن أخرى . فإنما هذه الميزة لهؤلاء اللواتى ارتبطن به وحدهن ، كى لا يحرمن شرف النسبة إليه ، بعدما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .. وحول هذه المبادىء تدور هذه الآيات :

«يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ، وبنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها ، خالصة لك من دون المؤمنين ، قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم ، لكى لا يكون عليك حرج ، وكان الله غفورا رحيما . ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك . ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ، والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما . لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن — إلا ما ملكت يمينك — وكان الله على كل شىء رقيبا » ..

ففى الآية يحل الله للنبي — صلى الله عليه وسلم — أنواع النساء المذكورات فيها — ولو كن فوق الأربع — مما هو محرم على غيره . وهذه الأنواع هى : الأزواج اللواتى أمهرهن . وما ملكت يمينه إطلاقا من الفىء ، وبنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته ممن هاجرن معه دون غيرهن ممن لم يهاجرن — إكراما للمهاجرات — وأيما امرأة وهبت نفسها للنبي بلا مهر ولا ولى . إن أراد النبي نكاحها ( وقد تضاربت الروايات حول ما إذا كان النبى — صلى الله عليه وسلم — قد تزوج واحدة من هذا الصنف من النساء أم لم يتزوج ، والأرجح أنه زوّج اللواتى عرضن أنفسهن عليه من رجال آخرين ) وقد جعل الله هذه خصوصية للنبي — صلى الله عليه وسلم — بما أنه ولى المؤمنين والمؤمنات جميعا . فأما الآخرون فهم خاضعون لما بينه الله وفرضه عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم . ذلك كى لا يكون على النبي حرج فى استبقاء أزواجه وفى الاستجابة للظروف الخاصة المحيطة بشخصه .

ثم ترك الخيار له — صلى الله عليه وسلم — فى أن يضم إلى عصمته من شاء ممن يعرضن أنفسهن

عليه ، أو يؤجل ذلك . ومن أرجأهن فله أن يعود إليهن حين يشاء .. وله أن يباشر من نسائه من يريد ويرجىء من يريد . ثم يعود .. « ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن » .. فهى مراعاة الظروف الخاصة المحيطة بشخص الرسول — صلى الله عليه وسلم — والرغبات الموجهة إليه ، والحرص على شرف الاتصال به ، مما يعلمه الله ويدبره بعلمه وحلمه . « والله يعلم مافى قلوبكم وكان الله عليما حليما » .

ثم أنزل الله تحريم من عدا نسائه اللواتى فى عصمته فعلا ، لا من ناحية العدد ، ولكن هن بذواتهن لا يستبدل بهن غيرهن ؛ ولم يعرف أن رسول الله قد زاد عليهن قبل التحريم :

«لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج — ولو أعجبك حسنهن» لا يستثنى من ذلك — « إلا ماملكت يمينك » .. فله منهن مايشاء .. « وكان الله على كل شىء رقيبا » .. والأمر موكول إلى هذه الرقابة واستقرارها فى القلوب .

وقد روت عائشة — رضى الله عنها — أن هذا التحريم قد ألغى قبل وفاة النبى — صلى الله عليه وسلم — وتركت له حرية الزواج . ولكنه — صلى الله عليه وسلم — لم يتزوج كذلك غيرهن بعد هذه الإباحة . فكن هن أمهات المؤمنين ..

* * *

بعد ذلك ينظم القرآن علاقة المسلمين ببيوت النبى — صلى الله عليه وسلم — وبنسائه — أمهات المؤمنين — فى حياته وبعد وفاته كذلك . ويواجه حالة كانت واقعة ، إذ كان بعض المنافقين والذين فى قلوبهم مرض يؤذون النبى — صلى الله عليه وسلم — فى بيوته وفى نسائه . فيحذرهم تحذيرا شديدا ، ويريهم شناعة جرمهم عند الله وبشاعته . ويهددهم بعلم الله لما يخفون فى صدورهم من كيد وشر :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام — غير ناظرين إناه — ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا . ولا مستأنسين لحديث . إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق . وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا . إن ذلكم كان عند الله عظيما . إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شىء عليما » ..

روى البخارى — بإسناده — عن أنس ابن مالك قال : بنى النبى — صلى الله عليه وسلم —

بزينب بنت جحش بخبز ولحم . فأرسلت على الطعام داعيا . فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون . ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون . فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه . فقلت : يارسول الله ما أجد أحدا أدعوه . قال : « ارفعوا طعامكم » . وبقى ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت . فخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فانطلق إلى حجرة عائشة — رضى الله عنها — فقال : « السلام عليكم — أهل البيت — ورحمة الله وبركاته » . قالت : وعليك السلام ورحمة الله . كيف وجدت أهلك يارسول الله ؟ بارك الله لك . فتقرى حجر نسائه ، كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ، ويقلن كما قالت عائشة . ثم رجع النبى — صلى الله عليه وسلم — فإذا ثلاثة رهط فى البيت يتحدثون . وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — شديد الحياء . فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة . فما أدرى أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا . فرجع حتى إذا وضع رجله فى أسكفة الباب داخله والأخرى خارجه ، أرخى الستر بينى وبينه ، وأنزلت آية الحجاب .

والآية تتضمن آدابا لم تكن تعرفها الجاهلية فى دخول البيوت ، حتى بيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد كان الناس يدخلون البيوت بلا إذن من أصحابها — كما جاء فى شرح آيات سورة النور الخاصة بالاستئذان — وربما كان هذا الحال أظهر فى بيوت النبى — صلى الله عليه وسلم بعد أن أصبحت هذه البيوت مهبط العلم والحكمة . وكان بعضهم يدخل وحين يرى طعاما يوقد عليه يجلس فى انتظار نضج هذا الطعام ليأكل بدون دعوة إلى الطعام ! وكان بعضهم يجلس بعد الطعام — سواء كان قد دعى إليه أوهجم هو عليه دون دعوة — ويأخذ فى الحديث والسمر غير شاعر بما يسببه هذا من إزعاج للنبى — صلى الله عليه وسلم — وأهله . وفى رواية أن أولئك الثلاثة الرهط الذين كانوا يسمرون كانوا يفعلون هذا وعروس النبى — زينب بنت جحش — جالسة وجهها إلى الحائط ! والنبى — صلى الله عليه وسلم — يستحى أن ينبههم إلى ثقلة مقامهم عنده حياء منه، ورغبة فى ألا يواجه زواره بما يخجلهم ! حتى تولى الله — سبحانه — عنه الجهر بالحق « والله لا يستحى من الحق » .

ومما يذكر أن عمر — رضى الله عنه — بحساسيته المرهفة كان يقترح على النبى — صلى الله عليه وسلم — الحجاب ؛ وكان يتمناه على ربه . حتى نزل القرآن الكريم مصدقا لاقتراحه مجيبا لحساسيته !

من رواية للبخارى — بإسناده — عن أنس ابن مالك . قال : قال عمر ابن الخطاب : يارسول الله . يدخل عليك البر والفاجر . فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب . فأنزل الله آية الحجاب ... »

وجاءت هذه الآية تعلم الناس ألا يدخلوا بيوت النبي بغير إذن . فإذا دعوا إلى الطعام دخلوا . فأما إذا لم يدعوا فلا يدخلون يرتقبون نضجه ! ثم إذا طعموا خرجوا ، ولم يبقوا بعد الطعام للسمر والأخذ بأطراف الحديث . . وما أحوج المسلمين اليوم إلى هذا الأدب الذى يجافيه الكثيرون . فإن المدعوين إلى الطعام يتخلفون بعده ، بل إنهم ليتخلفون على المائدة ، ويطول بهم الحديث ؛ وأهل البيت ـ الذين يحتفظون ببقية من أمر الإسلام بالاحتجاب ـ متأذون محتبسون ، والأضياف ماضون فى حديثهم وفى سمرهم لايشعرون ! وفى الأدب الإسلامى غناء وكفاء لكل حالة ، لو كنا نأخذ بهذا الأدب الإلهى القويم .

ثم تقرر الآية الحجاب بين نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرجال :

« وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب » . .

وتقرر أن هذا الحجاب أطهر لقلوب الجميع :

« ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » . .

فلا يقل أحد غير ماقال الله . لايقل أحد إن الاختلاط ، وإزالة الحجب ، والترخص فى الحديث واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين أطهر للقلوب ، وأعف للضمائر ، وأعون على تصريف الغريزة المكبوتة ، وعلى إشعار الجنسين بالأدب وترقيق المشاعر والسلوك . . . إلى آخر مايقوله نفر من خلق الله الضعاف المهازيل الجهال المحجوبين . لايقل أحد شيئا من هذا والله يقول : « وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » . . يقول هذا عن نساء النبي الطاهرات . أمهات المؤمنين . وعن رجال الصدر الأول من صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ممن لا تتطاول إليهن وإليهم الأعناق ! وحين يقول الله قولا . ويقول خلق من خلقه قولا . فالقول لله ـ سبحانه ـ وكل قول آخر هراء ، لايردده إلا من يجرؤ على القول بأن العبيد الفانين أعلم بالنفس البشرية من الخالق الباقى الذى خلق هؤلاء العبيد !

والواقع العملى الملموس يهتف بصدق الله ، وكذب المدعين غير مايقوله الله . والتجارب المعروضة اليوم فى العالم مصدقة لما نقول . وهى فى البلاد التى بلغ الاختلاط الحر فيها أقصاه أظهر فى هذا وأقطع من كل دليل . ( وأمريكا أول هذه البلاد التى آتى الاختلاط فيها أبشع الثمار ) [1]

(١) راجع بتوسع فصل « سلام البيت » فى كتاب : « السلام العالمى والإسلام » . .

وقد ذكرت الآية أن مجيئهم للطعام منتظرين نضجه من غير دعوة ؛ وبقاءهم بعد الطعام مستأنسين للحديث .. كان يؤذى النبي فيستحي منهم . وفى ختامها تقرر أنه ما يكون للمسلمين أن يؤذوا رسول الله . وكذلك ما يكون لهم أن يتزوجوا أزواجه من بعده ؛ وهن بمنزلة أمهاتهم . ومكانهن الخاص من رسول الله يحرم أن ينكحهن أحد من بعده ، احتفاظا بحرمة هذا البيت وجلاله وتفرده :

« وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا » ..

وقد ورد أن بعض المنافقين قال : إنه ينتظر أن يتزوج من عائشة !

« إن ذلكم كان عند الله عظيما » ..

وما أهول ما يكون عند الله عظيما !

ولا يقف السياق عند هذا الإنذار الهائل ، بل يستطرد إلى تهديد آخر هائل :

« إن تبدوا شيئا أو تخفوه ، فإن الله كان بكل شيء عليما » ..

وإذن فالله هو الذى يتولى الأمر . وهو عالم بما يبدو وما يخفى . مطلع على كل تفكير وكل تدبير . والأمر عنده عظيم . ومن شاء فليتعرض . فإنما يتعرض لبأس الله الساحق الهائل العظيم .

وبعد الإنذار والتهديد يعود السياق إلى استثناء بعض المحارم الذين لاحرج على نساء النبي — صلى الله عليه وسلم — فى أن يظهرن عليهم :

« لاجناح عليهن فى آبائهن ، ولا أبنائهن ، ولا إخوانهن ، ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ، ولا نسائهن ، ولا ما ملكت أيمانهن . واتقين الله . إن الله كان على كل شيء شهيدا » ..

وهؤلاء المحارم هم الذين أبيح لنساء المسلمين عامة أن يظهرن عليهم . . ولم أستطع أن أتحقق أى الآيات كان أسبق فى النزول ؛ الآية الخاصة بنساء النبي — صلى الله عليه وسلم — هنا ، أم الآية العامة لنساء المسلمين جميعا فى سورة النور . والأرجح أن الأمر كان خاصا بنساء النبي — صلى الله عليه وسلم — ثم عمم . فذلك هو الأقرب إلى طبيعة التكليف .

ولا يفوتنا أن نلحظ هذا التوجيه إلى تقوى الله ، والإشارة إلى اطلاعه على كل شيء : « واتقين الله ، إن الله كان على كل شيء شهيدا » . فالإيحاء بالتقوى ومراقبة الله يطرد فى مثل هذه المواضع ، لأن التقوى هى الضمان الأول والأخير ، وهى الرقيب اليقظ الساهر على القلوب.

***

ويستمر السياق في تحذير الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ـ في نفسه أو في أهله ؛ وفي تفظيع الفعلة التي يقدمون عليها .. وذلك عن طريقين : الطريق الأولى تمجيد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبيان مكانته عند ربه وفي الملأ الأعلى . والطريق الثانية تقرير أن إيذاءه إيذاء لله ـ سبحانه ـ وجزاؤه عند الله الطرد من رحمته في الدنيا والآخرة ، والعذاب الذي يناسب الفعلة الشنيعة :

« إن الله وملائكته يصلون على النبي . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما . إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا » ..

وصلاة الله على النبي ذكره بالثناء في الملأ الأعلى ؛ وصلاة ملائكته دعاؤهم له عند الله سبحانه وتعالى . . ويالها من مرتبة سنية حيث تردد جنبات الوجود ثناء الله على نبيه ؛ ويشرق به الكون كله وتتجاوب به أرجاؤه . ويثبت في كيان الوجود ذلك الثناء الأزلي القديم الأبدي الباقي . وما من نعمة ولا تكريم بعد هذه النعمة وهذا التكريم . وأين تذهب صلاة البشر وتسليمهم بعد صلاة الله العلي وتسليمه ، وصلاة الملائكة في الملأ الأعلى وتسليمهم ؟ إنما يشاء الله تشريف المؤمنين بأن يقرن صلاتهم إلى صلاته وتسليمهم إلى تسليمه ؛ وأن يصلهم عن هذا الطريق بالأفق العلوي الكريم الأزلي القديم .

وفي ظل هذا التمجيد الإلهي يبدو إيذاء الناس للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشعا شنيعا ملعونا قبيحا : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة ، وأعد لهم عذابا مهينا » . . ويزيده بشاعة وشناعة أنه إيذاء لله من عبيده ومخاليقه . وهم لا يبلغون أن يؤذوا الله . إنما هذا التعبير يصور الحساسية بإيذاء رسوله ، وكأنما هو إيذاء لذاته جل وعلا . فما أفظع ! وما أبشع ! وما أشنع !

ويستطرد كذلك إلى إيذاء المؤمنين والمؤمنات عامة . إيذاؤهم كذبا وبهتانا ، بنسبة ما ليس فيهم إليهم من النقائص والعيوب :

« والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا » ..

وهذا التشديد يشي بأنه كان في المدينة يومذاك فريق يتولى هذا الكيد للمؤمنين والمؤمنات ، بنشر قالة السوء عنهم ، وتدبير المؤامرات لهم ، وإشاعة التهم ضدهم . وهو عام في كل زمان وفي كل مكان . والمؤمنون والمؤمنات عرضة لمثل هذا الكيد في كل بيئة من الأشرار المنحرفين ،

والمنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض . والله يتولى عنهم الرد على ذلك الكيد ، ويصم أعداءهم بالإثم والبهتان . وهو أصدق القائلين .

* * *

ثم أمر الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — أن يأمر نساءه وبناته ونساء المؤمنين عامة — إذا خرجن لحاجتهن أن يغطين أجسامهن ورؤوسهن وجيوبهن — وهى فتحة الصدر من الثوب — بجلباب كاس . فيميزهن هـذا الزى ، ويجعلهن فى مأمن من معابثة الفساق . فإن معرفتهن وحشمتهن معا تلقيان الخجل والتحرج فى نفوس الذين كانوا يتتبعون النساء لمعابثتهن :

« يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن . ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين . وكان الله غفورا رحيما » ..

قال السدى فى هذه الآية : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طريق المدينة فيعرضون للنساء . وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطريق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن . فإذا رأوا المرأة عليها جلباب . قالوا : هذه حرة . فكفوا عنها . وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا : هـذه أمة فوثبوا عليها ..

وقال مجاهد : يتجلببن فيعلم أنهن حرائر ، فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولاريبة . وقوله تعالى : « وكان الله غفورا رحيما » أى لما سلف فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك .

ومن ذلك نرى الجهد المستمر فى تطهير البيئة العربية ، والتوجيه المطرد لإزالة كل أسباب الفتنة والفوضى ، وحصرها فى أضيق نطاق ، ريثما تسيطر التقاليد الإسلامية على الجماعة كلها وتحكمها .

* * *

وفى النهاية يأتى تهديد المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين الذين ينشرون الشائعات المزلزلة فى صفوف الجماعة المسلمة .. تهديدهم القوى الحاسم ، بأنهم إذا لم يرتدعوا عما يأتونه من هـذا كله ، وينتهوا عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، والجماعة المسلمة كلها ، أن يسلط الله عليهم نبيه ، كما سلطه على اليهود من قبل ، فيطهر منهم جو المدينة ، ويطاردهم من الأرض ؛ ويبيح دمهم حيثما وجدوا أخذوا وقتلوا . كما جرت سنة الله فيمن قبلهم من اليهود على يد النبى — صلى الله عليه وسلم — وغير اليهود من المفسدين فى الأرض فى القرون الخالية :

« لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ؛ ملعونين ، أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنة الله فى الذين خلوا من قبل . ولن تجد لسنة الله تبديلا » ..

ومن هذا التهديد الحاسم ندرك مدى قوة المسلمين فى المدينة بعد بنى قريظة ، ومدى سيطرة الدولة الإسلامية عليها . وانزواء المنافقين إلا فيما يدبرونه من كيد خفى ، لا يقدرون على الظهور ؛ إلا وهم مهددون خائفون .

« يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ . قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ ٱللَّهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً * إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ ، يَقُولُونَ : يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا * وَقَالُوا : رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا ، فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ، وَٱلْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ، فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا ، وَكَانَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَجِيهاً * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ؛ وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً .

« إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا ٱلْإِنْسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ ، وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ ، وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً » .

فى هذا الدرس الأخير من السورة حديث عن سؤال الناس عن الساعة ، واستعجالهم بها ،

وشكهم فيها . وجواب عن هذا السؤال يدع أمرها إلى الله ، مع تحذيرهم من قربها ، واحتمال أن تأخذهم على غرة أخذا سريعا . ثم يعرض السياق مشهدا من مشاهد الساعة لايسر المستعجلين بها ، يوم تقلب وجوهم فى النار . ويوم يندمون على عدم طاعة الله ورسوله . ويوم يطلبون لسادتهم وكبرائهم ضعفين من العذاب . وهو مشهد مفجع لايستعجل به مستعجل . .
ثم يعود بهم من هذا المشهد فى الآخرة إلى هذه الأرض مرة أخرى ! يعود ليحذر الذين آمنوا أن يكونوا كقوم موسى الذين آذوه واتهموه فبرأه الله مما قالوا — ويبدو أن هذا كان ردا على أمر واقع . ربما كان هو حديث بعضهم عن زواج الرسول — صلى الله عليه وسلم — بزينب ، ومخالفته لمألوف العرب — ويدعو المؤمنين أن يقولوا قولا سديدا بعيدا عن اللمز والعيب . ليصلح الله لهم أعمالهم ويغفر لهم ذنوبهم . ويحببهم فى طاعة الله ورسوله ويعدهم عليها الفوز العظيم .

ويختم السورة بالإيقاع الهائل العميق . عن الأمانة التى أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال ، وحملها الإنسان ، وهى ضخمة هائلة ساحقة . ذلك ليتم تدبير الله فى ترتيب الجزاء على العمل ، ومحاسبة الإنسان على مارضى لنفسه واختار : « ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما » . .

***

« يسألك الناس عن الساعة . قل : إنما علمها عند الله . وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا » . .

وقد كانوا ما يفتأون يسألون النبى — صلى الله عليه وسلم — عن الساعة التى حدثهم عنها طويلا ؛ وخوفهم بها طويلا ؛ ووصف القرآن مشاهدها حتى لكأن قارئه يراها . يسألونه عن موعدها ؛ ويستعجلون هذا الموعد ؛ ويحمل هذا الاستعجال معنى الشك فيها ، أو التكذيب بها ، أو السخرية منها ، بحسب النفوس السائلة ، وقربها من الإيمان أو بعدها .

والساعة غيب قد اختص به الله سبحانه ، ولم يشأ أن يطلع عليه أحدا من خلقه جميعا ، بما فيهم الرسل والملائكة المقربون . وفى حديث حقيقة الإيمان والإسلام : عن عبد الله ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : حدثنى أبى عمر ابن الخطاب — رضى الله عنه — قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثوب ، شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ، ولايعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ؛ وقال : يامحمد

أخبرنى عن الإسلام . فقال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت ! فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت ! قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن الساعة . قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ... الخ . ثم قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « فإنه جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم[1] » .

فالمسؤل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والسائل — جبريل عليه السلام — كلاهما لا يعلم علم الساعة ؛ « قل : إنما علمها عند الله » .. على وجه الاختصاص والتفرد من دون عباد الله .

قدر الله هذا لحكمة يعلمها ، نلمح طرفا منها ، فى ترك الناس على حذر من أمرها ، وفى توقع دائم لها ، وفى استعداد مستمر لفجأتها . ذلك لمن أراد الله له الخير ، وأودع قلبه التقوى . فأما الذين يغفلون عن الساعة ، ولا يعيشون فى كل لحظة على أهبة للقائها ، فأولئك الذين يختانون أنفسهم ، ولا يقونها من النار . وقد بين الله لهم وحذرهم وأنذرهم ؛ وجعل الساعة غيبا مجهولا متوقعا فى أية لحظة من لحظات الليل والنهار : « وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا » . .

* * *

« إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا ، يوم تقلب وجوههم فى النار ، يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » ..

إنهم يسألون عن الساعة . فهذا مشهد من مشاهد الساعة :

« إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا » . .

إن الله طرد الكافرين من رحمته ، وهيأ لهم نارا مسعرة متوقدة ، فهى معدة جاهزة حاضرة .

« خالدين فيها أبدا » ..

باقين فيها عهدا طويلا ، لا يعلم مداه إلا الله ؛ ولا نهاية له إلا فى علم الله ، حيث يشاء الله .

---

(١) أخرجه مسلم وأبوداود والترمذى والنسائى .

وهم مجردون من كل عون ، محرومون من كل نصير ، فلا أمل في الخلاص من هذا السعير ، بمعونة من ولي ولا نصير :

« لايجدون وليا ولا نصيرا » . .

أما مشهدهم في هذا العذاب فهو مشهد بائس أليم :

« يوم تقلب وجوههم فى النار » . .

والنار تغشاهم من كل جهة ، فالتعبير على هـذا النحو يراد به تصوير الحركة وتجسيمها ، والحرص على أن تصل النار إلى كل صفحة من صفحات وجوههم زيادة فى النكال !

« يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » . .

وهى أمنية ضائعة ، لاموضع لها ولا استجابة ، فقد فات الأوان . إنمـا هى الحسرة على ما كان !

ثم تنطلق من نفوسهم النقمة على سادتهم وكبرائهم ، الذين أضلوهم، وبالإنابة إلى الله وحده ، حيث لاتنفع الإنابة :

« وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » . .

هذه هى الساعة . فيم السؤال عنها ؟ إن العمل لها هو المخلص الوحيد من هـذا المصير المشؤوم فيها !

* * *

ويبدو أن زواج الرسول — صلى الله عليه و سلم — من زينب بنت جحش — رضى الله عنها — مخالفا فى ذلك عرف الجاهلية الذى تعمد الإسلام أن يبطله بهذه السابقة العملية . يبدو أن هذا الزواج لم يمـر بسهولة ويسر ؛ وأنه قد انطلقت ألسنة كثيرة من المنافقين ومرضى القلوب ، وغير المتثبتين الذين لم يتضح فى نفوسهم التصور الإسلامى الناصع البسيط ، انطلقت تغمز وتلمز ، وتؤول وتعترض ، وتهمس وتوسوس . وتقول قولا عظيما !

والمنافقون والمرجفون لم يكونوا يسكتون . فقد كانوا ينتهزون كل فرصة لبث سمومهم . كالذى رأينا فى غزوة الأحزاب . وفى حديث الإفك . وفى قسمة الفىء . وفى كل مناسبة تعرض لإيذاء النبي — صلى الله عليه وسلم — بغير حق .

وفى هذا الوقت ــ بعد إجلاء بنى قريظة وسائر اليهود من قبل ــ لم يكن فى المدينة من هو ظاهر بالكفر . فقد أصبح أهلها كلهم مسلمين . إما صادقين فى إسلامهم وإما منافقين . وكان المنافقون هم الذين يروجون الشائعات ، وينشرون الأكاذيب ، وكان بعض المؤمنين يقع فى حبائلهم ، ويسايرهم فى بعض مايروجون . فجاء القرآن يحذرهم إيذاء النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما آذى بنو إسرائيل نبيهم موسى ــ عليه السلام ــ ويوجههم إلى تسديد القول ، وعدم إلقائه على عواهنه ، بغير ضبط ولادقة ؛ ويحببهم فى طاعة الله ورسوله وما وراءها من فوز عظيم :

« يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا . وكان عند الله وجيها . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم . ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » ..

ولم يحدد القرآن نوع الإيذاء لموسى ؛ ولكن وردت روايات تعينه . ونحن لانرى بنا من حاجة للخوض فى هذا الذى أجمله القرآن . فإنما أراد الله تحذير الذين آمنوا من كل مايؤذى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد ضرب بنى إسرائيل مثلا للالتواء والانحراف فى مواضع من القرآن كثيرة . فيكفى أن يشير إلى إيذائهم لنبيهم ، وتحذير المسلمين من متابعتهم فيه ، لينفر حس كل مؤمن من أن يكون كهؤلاء المنحرفين الملتوين الذين يضربهم القرآن مثلا صارخا للانحراف والالتواء .

وقد برأ الله موسى مما رماه به قومه ، « وكان عند الله وجيها » ذا وجاهة وذا مكانة . والله مبرئ رسله من كل مايرمون به كذبا وبهتانا . ومحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أفضل الرسل أولاهم بتبرئة الله له والدفاع عنه .

ويوجه القرآن المؤمنين إلى تسديد القول وإحكامه والتدقيق فيه ، ومعرفة هدفه واتجاهه ، قبل أن يتابعوا المنافقين والمرجفين فيه ؛ وقبل أن يستمعوا فى نبيهم ومرشدهم ووليهم إلى قول طائش ضال أو مغرض خبيث . ويوجههم إلى القول الصالح الذى يقود إلى العمل الصالح . فالله يرعى المسددين ويقود خطاهم ويصلح لهم أعمالهم جزاء التصويب والتسديد . والله يغفر لذوى الكلمة الطيبة والعمل الصالح ؛ ويكفر عن السيئة التى لاينجو منها الآدميون الخطاءون . ولاينقذهم منها إلا المغفرة والتكفير .

« ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » . .

والطاعة بذاتها فوز عظيم . فهى استقامة على نهج الله . والاستقامة على نهج الله مريحة

مطمئنة . والاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح الواصل سعادة بذاته ، ولو لم يكن وراءه جزاء سواه . وليس الذى يسير فى الطريق المهود المنير وكل ماحوله من خلق الله يتجاوب معه ويتعاون كالذى يسير فى الطريق القلقل المظلم وكل ماحوله من خلق الله يعاديه ويصادمه ويؤذيه ! فطاعة الله ورسوله تحمل جزاءها فى ذاتها ؛ وهى الفوز العظيم ، قبل يوم الحساب وقبل الفوز بالنعيم . أما نعيم الآخرة فهو فضل زائد على جزاء الطاعة . فضل من كرم الله وفيضه بلا مقابل. والله يرزق من يشاء بغير حساب .

* * *

ولعله فضل نظر الله فيه إلى ضعف هذا الإنسان ، وإلى ضخامة التبعة التى يحملها على عاتقه. وإلى حمله للأمانة التى أشفقت منها السماوات والأرض والجبال . والتى أخذها على عاتقه ، وتعهد بحملها وحده ، وهو على ماهو عليه من الضعف وضغط الشهوات والميول والنزعات ، وقصور العلم ، وقصر العمر ، وحواجز الزمان والمكان ، دون المعرفة الكاملة ورؤية ماوراء الحواجز والآماد :

« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ؛ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » ..

إن السماوات والأرض والجبال — التى اختارها القرآن ليحدث عنها — هذه الخلائق الضخمة الهائلة ، التى يعيش الإنسان فيها أو حيالها فيبدو شيئاً صغيرا ضئيلا . هـذه الخلائق تعرف بارئها بلا محاولة ، وتهتـدى إلى ناموسه الذى يحكمها بخلقتها وتـكوينها ونظامها ؛ وتطيع ناموس الخالق طاعة مباشرة بلا تدبر ولاواسطة . وتجرى وفق هذا الناموس دائبة لاتنى ولا تتخلف دورتها جزءا من ثانية ؛ وتؤدى وظيفتها بحكم خلقتها وطبيعتها غير شاعرة ولامختارة .

هذه الشمس تدور فى فلـكها دورتها المنتظمة التى لاتختل أبدا . وترسل بأشعتها فتؤدى وظيفتها التى قدرها الله لهـا ؛ وتجذب توابعها بلا إرادة منها ؛ فتؤدى دورها الـكونى أداء كامـلا . .

وهـذه الأرض تدور دورتها ، وتخرج زرعها ، وتقوت أبناءها ، وتوارى موتاها ، وتتفجر ينابيعها . وفق سنة الله بلا إرادة منها .

وهذا القمر . وهذه النجوم والـكواكب . وهذه الرياح والسحب . وهذا الهواء وهذا

الماء .. وهذه الجبال . وهذه الوهاد .. كلها .. كلها .. تمضى لشأنها ، بإذن ربها ، وتعرف بارئها ، وتخضع لمشيئته بلا جهد منها ولا كد ولامحاولة .. لقد أشفقت من أمانة التبعة . أمانة الإرادة . أمانة المعرفة الذاتية . أمانة المحاولة الخاصة .

« وحملها الإنسان » ..

الإنسان الذى يعرف الله بإدراكه وشعوره . ويهتدى إلى ناموسه بتدبره وبصره . ويعمل وفق هذا الناموس بمحاولته وجهده . ويطيع الله بإرادته وحمله لنفسه ، ومقاومة انحرافاته ونزغاته ، ومجاهدة ميوله وشهواته .. وهو فى كل خطوة من هذه الخطوات مريد . مدرك . يختار طريقه وهو عارف إلى أين يؤدى به هذا الطريق !

إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم ، القليل القوة ، الضعيف الحول ، المحدود العمر ؛ الذى تناوشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع . .

وإنها لمخاطرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة . ومن ثم « كان ظلوما » لنفسه « جهولا » لطاقته . هذا بالقياس إلى ضخامة ما زج بنفسه لحمله . فأما حين ينهض بالتبعة . حين يصل إلى المعرفة الواصلة إلى بارئه ، والاهتداء المباشر لناموسه ، والطاعة الكاملة لإرادة ربه . المعرفة والاهتداء والطاعة التى تصل فى طبيعتها وفى آثارها إلى مثل ماوصلت إليه من سهولة ويسر وكمال فى السماوات والأرض والجبال .. الخلائق التى تعرف مباشرة ، وتهتدى مباشرة ، وتطيع مباشرة ، ولا تحول بينها وبين بارئها وناموسه وإرادته الحوائل . ولا تقعد بها المثبطات عن الانقياد والطاعة والأداء .. حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة ، وهو واع مدرك مريد . فإنه يصل حقا إلى مقام كريم ، ومكان بين خلق الله فريد .

إنها الإرادة والإدراك والمحاولة وحمل التبعة .. هى هى ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله . وهى هى مناط التكريم الذى أعلنه الله فى الملأ الأعلى ، وهو يسجد الملائكة لآدم . وأعلنه فى قرآنه الباقى وهو يقول : « ولقد كرمنا بنى آدم » .. فليعرف الإنسان مناط تكريمه عند الله . ولينهض بالأمانة التى اختارها ؛ والتى عرضت على السماوات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ... !

ذلك كان .. « ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات . وكان الله غفورا رحيما » ..

فاختصاص الإنسان بحمل الأمانة ؛ وأخذه على عاتقه أن يعرف بنفسه ، ويهتدى بنفسه ،

ويعمل بنفسه ، ويصل بنفسه .. هذا كان ليحتمل عاقبة اختياره ، وليكون جزاؤه من عمله . وليحق العذاب على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات . وليمد الله يد العون للمؤمنين والمؤمنات ، فيتوب عليهم مما يقعون فيه تحت ضغط ماركب فيهم من نقص وضعف ، ومايقف فى طريقهم من حواجز وموانع ، ومايشدهم من جواذب وأثقال .. فذلك فضل الله وعونه . وهو أقرب إلى المغفرة والرحمة بعباده : « وكان الله غفورا رحيما » ..

* * *

وبهذا الإيقاع الهائل العميق تختم السورة التى بدأت بتوجيه الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى طاعة الله وعصيان الكافرين والمنافقين ، واتباع وحى الله ، والتوكل عليه وحده دون سواه . والتى تضمنت توجيهات وتشريعات يقوم عليها نظام المجتمع الإسلامى ، خالصا لله ، متوجها له ، مطيعا لتوجيهاته .

بهذا الإيقاع الذى يصور جسامة التبعة وضخامة الأمانة . ويحدد موضع الجسامة ومنشأ الضخامة . ويحصرها كلها فى نهوض الإنسان بمعرفة الله والاهتداء إلى ناموسه ، والخضوع لمشيئته . .

بهـذا الإيقاع تختم السورة ، فيتناسق بدؤها وختامها ، مع موضوعها واتجاهها . ذلك التناسق المعجز ، الدال بذاته على مصدر هذا الكتاب !

# سورة سبأ مكية
## وآياتها ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ .

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ . قُلْ : بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ، عَالِمِ الْغَيْبِ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ .

« وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ، وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ؟ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ؟ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ * أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » .

موضوعات هذه السورة المكية هى موضوعات العقيدة الرئيسية : توحيد الله ، والإيمان بالوحى ، والاعتقاد بالبعث . وإلى جوارها تصحيح بعض القيم الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسية . وبيان أن الإيمان والعمل الصالح ــ لا الأموال ولا الأولاد ــ هما قوام الحكم والجزاء عند الله . وأنه ما من قوة تعصم من بطش الله ؛ وما من شفاعة عنده إلا بإذنه .

والتركيز الأكبر فى السورة على قضية البعث والجزاء ؛ وعلى إحاطة علم الله وشموله ودقته ولطفه . وتتكرر الإشارة فى السورة إلى هاتين القضيتين المترابطتين بطرق منوعة ، وأساليب شتى ؛ وتظلل جو السورة كله من البدء إلى النهاية .

فعن قضية البعث يقول : « وقال الذين كفروا : لاتأتينا الساعة . قل : بلى وربى لتأتينكم » . .

وعن قضية الجزاء يقول : « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم » . .

وفى موضع آخر قريب فى سياق السورة : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » .

ويورد عدة مشاهد للقيامة ، وما فيها من تأنيب للمكذبين بها ، ومن صور العذاب الذى كانوا يكذبون به ، أو يشكون فى وقوعه كهذا المشهد : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول . يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ » . .

وتتكرر هذه المشاهد وتتوزع فى السورة وتختم بها كذلك : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا : آمنا به . وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ وحيل بينهم وبين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل . إنهم كانوا فى شك مريب » .

وعن قضية العلم الإلهى الشامل يرد فى مطلع السورة : « يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » . .

ورد تعقيبا على التكذيب بمجيء الساعة : « قل : بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب ، لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولافى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » . .

ويرد قرب ختام السورة : « قل : إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب » . .

وفى موضوع التوحيد تبدأ السورة بالحمد لله « الذى له ما فى السماوات ومافى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير » . .

ويتحداهم مرات فى شأن الشركاء الذين يدعونهم من دون الله : « قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لايملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير » . .

وتشير الآيات إلى عبادتهم للملائكة وللجن وذلك فى مشهد من مشاهد القيامة : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » .

وينفى ماكانوا يظنونه من شفاعة الملائكة لهم عند ربهم : « ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير » . .

وبمناسبة عبادتهم للشياطين ترد قصة سليمان وتسخير الجن له ، وعجزهم عن معرفة موته : « فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته . فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين » . .

وفى موضوع الوحى والرسالة يرد قوله : « وقال الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه » .. وقوله : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا : ماهذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلاسحر مبين » . .

ويرد عليهم بتقرير الوحى والرسالة : « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ، ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » . . « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا . ولكن أكثر الناس لايعلمون » . .

وفى موضوع تقرير القيم يرد قوله : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها :

إنا بمـا أرسلتم به كافرون . وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعـذبين . قل : إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقـدر ، ولـكن أكثر الناس لايعلمون . وما أموالـكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون » . .

ويضرب على هذا أمثلة من الواقع التاريخى فى هـذه الأرض : قصة آل داود الشاكرين على نعمة الله . وقصة سبأ المتبطرين الذين لايشكرون . وما وقع لهؤلاء وهؤلاء . وفيه مصداق مشهود للوعد والوعيد .

* * *

هذه القضايا التى تعالجها السور المـكية فى صور شتى ، تعرض فى كل سورة فى مجال كونى ، مصحوبة بمؤثرات منوعة ، جديدة على القلب فى كل مرة . ومجال عرضها فى سورة سبأ هـذه هو ذلك المجال ، ممثلا فى رقعة السماوات والأرض الفسيحة ، وفى عالم الغيب المجهول الرهوب . وفى ساحة الحشر الهائلة العظيمة . وفى أعمـاق النفس المطوية اللطيفة . وفى صحائف التاريخ المعلومة والمجهولة ، وفى مشاهد من ذلك التاريخ عجيبة غريبة . وفى كل منها مؤثر موح للقلب البشرى ، موقظ له من الغفلة والضيق والهمود .

فمنذ افتتاح السورة وهى تفتح على هـذا الـكون الهائل ؛ وعلى صحائفه ومافيها من آيات الله ، وعلى مجالى علمه اللطيف الشامل الدقيق الهائل : « يعلم ما يلج فى الأرض ومايخرج منها ، وماينزل من السماء وما يعرج فيها » . . « وقال الذين كفروا : لاتأتينا الساعة . قل : بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لايعزب عنـه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » . .

والذين يكذبون بالآخرة يتهددهم بأحداث كونية ضخمة : « أفلم يروا إلى مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ؟ إن نشأ نخسف بهم الأرض أونسقط عليهم كسفاً من السماء . إن فى ذلك لآية لـكل عبـد منيب » . .

والذين يعبدون من دون الله ملائـكة أو جنا يقفهم وجهـا لوجه أمام الغيب الرهوب فى الملأ الأعلى : « ولاتنفع الشفاعة عنـده إلا لمن أذن له . حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق . وهو العلى الـكبير » . .

أو يواجههم بالملائـكة فى ساحة الحشر حيث لامجـال للمواربة والمجادلة : « ويوم يحشرهم

جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . . . الخ » .

والمكذبون لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين يتهمونه بالافتراء أو أن به جنة يقفهم أمام فطرتهم ، وأمام منطق قلوبهم بعيداً عن الغواشى والمؤثرات المصطنعة : « قل : إنما أعظكم بواحدة . أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا . مابصاحبكم من جنة . إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . .

وهكذا تطوف السورة بالقلب البشرى فى تلك المجالات المتنوعة ، وتواجهه بتلك المؤثرات الموحية الموقظة . حتى تنتهى بمشهد عنيف أخاذ من مشاهد القيامة كما أسلفنا . .

* * *

ويجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى تلك المجالات وتحت تلك المؤثرات فى جولات قصيرة متلاحقة متماسكة ؛ يمكن تقسيمها إلى خمسة أشواط ؛ لتيسير عرضها وشرحها .وإلا فإنه ليس بينها فواصل تحددها تحديداً دقيقاً . . وهذا هو طابع السورة الذى يميزها . .

تبدأ السورة بالحمد لله ، المالك لما فى السماوات والأرض المحمود فى الآخرة ، وهو الحكيم الخبير . وتقرر علمه الشامل الدقيق لما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . وتحكى إنكار الذين كفروا لمجىء الساعة ورد الله عليهم بتوكيد مجيئها ، وعلم الله الذى لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولافى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . ليتم جزاء المؤمنين وجزاء الذين يسعون فى آيات الله معاجزين ، عن علم دقيق . وتثبت رأى أولى العلم الحقيقى الذين يشهدون أن ما أنزل الله لنبيه هو الحق . وتحكى عجب الذين كفروا من قضية البعث ، وترد عليهم بأنهم فى العذاب والضلال البعيد ؛ وتهددهم بخسف الأرض من تحتهم أو إسقاط السماء كسفاً عليهم . .

وبذلك ينتهى الشوط الأول .

فأما الشوط الثانى فيتناول طرفاً من قصة آل داود الشاكرين لله على نعمته ، بتسخير قوى كثيرة لداود وسليمان بإذن الله . غير متبطرين ولا مستكبرين، ومن هذه القوى المسخرة الجن الذين كان يعبدهم بعض المشركين ، ويستفتونهم فى أمر الغيب . وهم لايعلمون الغيب . وقد ظلوا يعملون لسليمان عملا شاقا مهينا بعد موته وهم لايعلمون . . . وفى مقابل قصة الشكر تجىء قصة البطر . قصة سبأ . وما كانوا فيه من نعيم لم يشكروه: « فجعلناهم أحاديث ومزقناهم

كل ممزق » .. وذلك أنهم اتبعوا الشيطان ، وما كان له عليهم من سلطان ، لولا أنهم أعطوه قيادهم مختارين !

ويبدأ الشوط الثالث بتحدى المشركين أن يدعوا الذين يزعمونهم آلهة من دون الله . وهم « لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير » .. وهم لايملكون لهم شفاعة عند الله ــ ولو كانوا من الملائكة ــ فالملائكة يتلقون أمر الله بالخشوع الراجف ؛ ولايتحدثون حتى يزول عنهم الفزع والارتجاف العميق .. ويسألهم عمن يرزقهم من السماوات والأرض . والله مالك السماوات والأرض ، وهو الذى يرزقهم بلا شريك .. ثم يفوض أمره وأمرهم إلى الله ، وهو الذى يفصل فيماهم مختلفون .. ويختم هذا الشوط بالتحدى كما بدأه ، أن يروه الذين يلحقونهم بالله شركاء . « كلا بل هو الله العزيز الحكيم » ..

والشوط الرابع والشوط الخامس يعالجان معاً قضية الوحى والرسالة ، وموقفهم منها ، وموقف المترفين من كل دعوة ، واعتزازهم بأموالهم وأولادهم ؛ ويقرران القيم الحقيقية التى يكون عليها الحساب والجزاء ، وهى قيم الإيمان والعمل الصالح لا الأموال والأولاد . ويعرضان مصائر المؤمنين والمكذبين فى عدة مشاهد متنوعة من مشاهد القيامة ، يتبرأ فيها التابعون من المتبوعين . كما يتبرأ فيها الملائكة من عبادة الضالين المشركين .. ويدعوهم بين هذه المشاهد إلى أن يرجعوا إلى فطرتهم يستلهمونها مجردة عن الهوى وعن الضجيج فى أمر هذا الرسول الذى يندفعون فى تكذيبه بلا دليل . وهو لايطلب إليهم أجرا على الهدى ، وليس بكاذب ولا مجنون .. ويختم كل من الشوطين بمشهد من مشاهد القيامة . وتنتهى السورة بإيقاعات قصيرة قوية : « قل : إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل : جاء الحق ومايبدىء الباطل ومايعيد . قل : إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلىّ ربى إنه سميع قريب » .. وتختم بمشهد من مشاهد القيامة قصير الخطى قوى عنيف .

والآن نأخذ بعد هذا العرض الإجمالى فى التفصيل ..

***

« الحمد لله ، الذى له ما فى السماوات ، ومافى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة ، وهو الحكيم الخبير . يعلم مايلج فى الأرض ، ومايخرج منها ، وما ينزل من السماء ، ومايعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور » ..

ابتداء السورة التى تستعرض إشراك المشركين بالله ، وتكذيبهم لرسوله ، وشكهم فى الآخرة ، واستبعادهم للبعث والنشور . ابتداء بالحمد لله . والله محمود لذاته — ولو لم يقم بحمده أحد من هؤلاء البشر — وهو محمود فى هذا الوجود الذى يسبح بحمده ، ومحمود من شتى الخلائق ولو شذ البشر عن سائر خلائق الله .

ومع الحمد صفة الملك لما فى السماوات ومافى الأرض ؛ فليس لأحد معه شىء ، وما لأحد فى السماوات والأرض من شرك ، فله — سبحانه — كل شىء فيهما .. وهذه هى القضية الأولى فى العقيدة . قضية التوحيد . والمالك لكل شىء هو الله الذى لامالك لشىء سواه فى هذا الكون العريض .

« وله الحمد فى الآخرة » . . الحمد الذاتى . والحمد المرتفع من عباده . حتى ممن كانوا يجحدونه فى الدنيا ، أو يشركون معه غيره عن ضلالة ، تتكشف فى الآخرة ، فيتمحض له الحمد والثناء .

« وهو الحكيم الخبير » . . الحكيم الذى يفعل كل ما يفعل بحكمة ؛ ويصرف الدنيا والآخرة بحكمة ؛ ويدبر أمر الوجود كله بحكمة . . الخبير الذى يعلم بكل شىء ، وبكل أمر ، وبكل تدبير علما كاملا شاملا عميقاً يحيط بالأمور .

ثم يكشف صفحة من صحائف علم الله ، مجالها الأرض والسماء :

« يعلم مايلج فى الأرض ، ومايخرج منها ، وما ينزل من السماء ، ومايعرج فيها » . .

ويقف الإنسان أمام هذه الصفحة المعروضة فى كلمات قليلة ، فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء ، والحركات ، والأحجام ، والأشكال ، والصور ، والمعانى ، والهيئات ، لايصمد لها الخيال !

ولو أن أهل الأرض جميعاً وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون مايقع فى لحظة واحدة ، مما تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين !

فكم من شىء فى هذه اللحظة الواحدة يلج فى الأرض ؟ وكم من شىء فى هذه اللحظة يخرج منها ؟ وكم من شىء فى هذه اللحظة ينزل من السماء ؟ وكم من شىء فى هذه اللحظة يعرج فيها ؟

كم من شىء يلج فى الأرض ؟ كم من حبة تختبىء أو تخبأ فى جنبات هذه الأرض ؟ كم من دودة ومن حشرة ومن هامة ومن زاحفة تلج فى الأرض فى أقطارها المترامية ؟ كم من قطرة ماء

ومن ذرة غاز ، ومن إشعاع كهرباء تندس فى الأرض فى أرجائها الفسيحة ؟ وكم وكم مما يلج فى الأرض وعين الله عليه ساهرة لاتنام ؟

وكم يخرج منها ؟ كم من نبتة تنبثق ؟ وكم من نبع يفور ؟ وكم من بركان يتفجر ؟ وكم من غاز يتصاعد ؟ وكم من مستور ينكشف ؟ وكم من حشرة تخرج من بيتها المستور ؟ وكم وكم مما يرى ومما لا يرى ، ومما يعلمه البشر ومما يجهلونه وهو كثير ؟

وكم مما ينزل من السماء ؟ كم من نقطة مطر ؟ وكم من شهاب ثاقب ؟ وكم من شعاع محرق ، وكم من شعاع منير ؟ وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور ؟ وكم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد . وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقدر . . وكم وكم مما لايحصيه إلا الله .

وكم مما يعرج فيها ؟ كم من نفس صاعدمن نبات أوحيوان أو إنسان أو خلق آخر مما لايعرفه الإنسان ؟ وكم من دعوة إلى الله معلنة أو مستسرة لم يسمعها إلا الله فى علاه .

وكم من روح من أرواح الخلائق التى نعلمها أونجهلها متوفاة . وكم من ملك يعرج بأمر من روح الله . وكم من روح يرف فىهذا الملكوت لايعلمه إلا الله .

ثم كم منقطرة بخار صاعدة من بحر ، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم ؟ وكم وكم مما لايعلمه سواه ؟ !

كم فى لحظة واحدة ؟ وأين يذهب علم البشر وإحصاؤهم لما فى اللحظة الواحدة ولو قضوا الأعمار الطوال فى العد والإحصاء ؟ وعلم الله الشامل الهائل اللطيف العميق يحيط بهذا كله فى كل مكان وفى كل زمان . . وكل قلب ومافيه من نوايا وخواطر وماله من حركات وسكنات تحت عين الله ، وهو مع هذا يستر ويغفر . . « وهو الرحيم الغفور » . .

وإن آية واحدة من القرآن كهذه الآية لما يوحى بأن هذا القرآن ليس من قول البشر . فمثل هذا الخاطر الكونى لايخطر بطبيعته على قلب بشر ؟ ومثل هذا التصور الكونى لادافع إليه من طبيعة تصور البشر ، ومثل هذه الإحاطة باللمسة الواحدة تتجلى فيها صنعة الله بارئ هذا الوجود ! التى لا تشبهها صنعة العبيد !

* * *

وبعد تقرير تلك الحقيقة فى تلك الصورة الرائعة الواسعة المدى الفسيحة المجال يحكى إنكار الذين كفروا بمجئ الساعة ؛ وهم القاصرون الذين لايعلمون ماذا يأتيهم به الغد ؛ والله هو

العليم بالغيب ؛ الذى لايند عن علمه شىء فى السماء ولا فى الأرض ؛ والساعة لابد منها ليلاقى المحسن والمسىء جزاء ماقدما فى هذه الأرض :

«وقال الذين كفروا : لاتأتينا الساعة : قل : بلى وربى لتأتينكم ، عالم الغيب ، لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولافى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم » . .

وإنكار الذين كفروا للآخرة ناشىء من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره . فحكمة الله لاتترك الناس سدى ، يحسن منهم من يحسن ويسىء منهم من يسىء ؛ ثم لايلقى المحسن جزاء إحسانه ، ولايلقى المسىء جزاء إساءته . وقد أخبر الله على لسان رسله : أنه يستبقى الجزاء كله أو بعضه للآخرة . فكل من يدرك حكمة الله فى خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره . . ولكن الذين كفروا محجوبون عن تلك الحكمة . ومن ثم يقولون قولتهم هذه : «لاتأتينا الساعة » .. فيرد عليهم مؤكداً جازماً : «قل : بلى وربى لتأتينكم » .. وصدق الله تعالى وصدق رسول الله ـ عليه صلوات الله ـ وهم لايعلمون الغيب ومع ذلك يتألون على الله ، ويجزمون بما لاعلم لهم به . والله الذى يؤكد مجىء الساعة هو : « عالم الغيب » .. فقوله الحق عن علم بما هنالك وعن يقين .

ثم يعرض هذا العلم فى صورة كونية كالتى سبقت فى مطلع السورة ، تشهد هى الأخرى بأن هذا القرآن لايكون من صنع بشر ، لأن خيال البشر لا تخطر له عادة مثل هذه الصور :

« لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولافى الأرض ؛ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » . .

ومرة أخرى نقول : إن طبيعة هذا التصور ليست بشرية . وإنه ليست لها سابقة فى كلام البشر شعره ونثره على السواء . فعندما يتحدث البشر عن شمول العلم ودقته وإحاطته لايخطر على بالهم أن يصوروه فى هذه الصورة الكونية العجيبة : « لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولافى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ... » .. ولست أعرف فى كلام البشر اتجاها إلى مثل هذا التصور للعلم الدقيق الشامل . فهو الله . سبحانه . الذى يصف نفسه ، ويصف علمه ، بما يعلم من الأوصاف التى لاتخطر للبشر ! وبذلك يرفع تصور المسلمين لإلههم الذى يعبدونه فيعرفونه بصفته فى حدود طاقتهم البشرية المحدودة على كل حال .

وأقرب تفسير لقوله تعالى : « إلا في كتاب مبين » أنه علم الله الذى يقيد كل شيء ، ولا يند عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

ونقف أمام لفتة فى قوله تعـالى : « مثقال ذرة . . . ولا أصغر من ذلك » . والذرة كان معروفا — إلى عهد قريب — أنها أصغر الأجسام . فالآن يعرف البشر — بعد تحطيم الذرة — أن هناك ماهو أصغر من الذرة ، وهو جزيئاتها التى لم تـكن فى حسبان أحـد يومذاك ! وتبارك الله الذى يعلم عباده مايشاء من أسرار صفته ومن أسرار خلقه عند مايشاء .

مجىء الساعة حتما وجزما ، وعلمه الذى لاتند عنه صغيرة ولا كبيرة :

« ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات . أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين ، أولئك لهم عذاب من رجز أليم » . .

فهناك حكمة وقصد وتدبير . وهناك تقدير فى الخلق لتحقيق الجزاء الحق للذين آمنـوا وعملوا الصالحات ، وللذين سعوا فى آيات الله معاجزين . .

فأما الذين آمنوا وحققوا إيمـانهم بالعمل الصالح فلهم « مغفرة » لما يقع منهم من خطايا ولهم « رزق كريم » والرزق يجىء ذكره كثيرا فى هذه السورة ، فناسب أن يعـبر عن نعيم الآخرة بهذا الوصف ، وهو رزق من رزق الله على كل حال .

وأما الذين سعوا باذلين جهدهم للصد عن آيات الله ، فلهم عذاب من أليم العذاب وسيئه . والرجز هو العذاب السيىء . جزاء اجتهادهم ومعاجزتهم وكدهم فى سبيل السوء !

وبهذا وذاك تتحقق حكمة الله وتدبيره ، وحكمة الساعة التى يجزمون بأنها لاتأتيهم ؛ وهى لا بد أن تجىء . .

***

وبمناسبة جزمهم بأن الساعة لاتأتيهم — وهى غيب من غيب الله — وتأكيد الله لمجيئها — وهو عالم الغيب — وتبليغ رسول الله — صـلى الله عليه وسلم — ما أمره ربه بتبليغه من أمرها يقرر أن « الذين أوتوا العلم » يدركون ويشهدون بأن ماجاءه من ربه هو الحق وأنه يهدى إلى طريق العزيز الحميد :

« ويرى الذين أوتوا العـلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ، ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » . .

وقد ورد أن المقصود بالذين أوتوا العلم هم أهل الكتاب ، الذين يعلمون من كتابهم أن هذا القرآن هو الحق ، وأنه يقود إلى صراط العزيز الحميد .

ومجال الآية أكبر وأشمل . فالذين أوتوا العلم فى أى زمان وفى أى مكان ، من أى جيل ومن أى قبيل ، يرون هذا متى صح علمهم واستقام ؛ واستحق أن يوصف بأنه « العلم » ! والقرآن كتاب مفتوح للأجيال . وفيه من الحق ما يكشف عن نفسه لكل ذى علم صحيح . وهو يكشف عن الحق المستكن فى كيان هذا الوجود كله . وهو أصدق ترجمة وصفية لهذا الوجود ومافيه من حق أصيل .

« ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » ..

وصراط العزيز الحميد هو المنهج الذى أراده للوجود ؛ واختاره للبشر لينسق خطاهم مع خطى هذا الكون الذى يعيشون فيه . وهو الناموس الذى يهيمن على أقدار هذا الكون كله ، بما فيه من الحياة البشرية التى لاتنفصل فى أصلها ونشأتها ، ولافى نظامها وحركتها عن هذا الكون ومافيه ومن فيه .

يهدى إلى صراط العزيز الحميد بما ينشئه فى إدراك المؤمن من تصور للوجود وروابطه وعلاقاته وقيمه ؛ ومكان هذا الإنسان منه ، ودوره فيه ؛ وتعاون أجزاء هذا الكون من حوله — وهو معها — فى تحقيق مشيئة الله وحكمته فى خلقه ؛ وتناسق حركات الجميع وتوافقها فى الاتجاه إلى بارئ الوجود .

ويهدى إلى صراط العزيز الحميد بتصحيح منهج التفكير ، وإقامته على أسس سليمة ، متفقة مع الإيقاعات الكونية على الفطرة البشرية ؛ بحيث يؤدى هذا المنهج بالفكر البشرى إلى إدراك طبيعة هذا الكون وخواصه وقوانينه ، والاستعانة بها ، والتجاوب معها بلا عداء ولا اصطدام ولاتعويق .

ويهدى إلى صراط العزيز الحميد بمنهجه التربوى الذى يعد الفرد للتجاوب والتناسق مع الجماعة البشرية . ويعد الجماعة البشرية للتجاوب والتناسق — أفرادا وجماعات — مع مجموعة الخلائق التى تعمر هذا الكون ! ويعد هذه الخلائق كلها للتجاوب والتناسق مع طبيعة الكون الذى تعيش فيه . . كل ذلك فى بساطة ويسر ولين .

ويهدى إلى صراط العزيز الحميد بما فيه من نظم وتشريعات مستقيمة مع فطرة الإنسان وظروف حياته ومعاشه الأصيلة ، متناسقة مع القوانين الكلية التى تحكم بقية الأحياء ، وسائر

الخلائق ؛ فلا يشذ عنها الإنسان بنظمه وتشريعاته . وهو أمة من هذه الأمم فى نطاق هذا الكون الكبير .

إن هذا الكتاب هو الدليل إلى هذا الصراط . الدليل الذى وضعه خالق الإنسان وخالق الصراط ، العارف بطبيعة هذا وذاك . وإنك لتكون حسن الطالع وأنت تقوم برحلة فى طريق لو حصلت على دليل من وضع المهندس الذى أنشأ هذا الطريق . فكيف بمنشئ الطريق ومنشئ السالك فى الطريق ؟ !

***

وبعد هذه اللمسة الموقظة الموجهة يستأنف حكاية حديثهم عن البعث ، ودهشتهم البالغة لهذا الأمر ، الذى يرونه عجيباً غريباً ، لايتحدث به إلا من أصابه طائف من الجن ، فهو يتفوه بكل غريب عجيب ، أو يفترى الكذب ويقول بما لا يمكن أن يكون .

« وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ! أفترى على الله كذباً أم به جنة ؟ بل الذين لايؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » . .

إلى هذا الحد من الاستغراب والدهش كانوا يقابلون قضية البعث . فيعجبون الناس من أمر القائل بها فى أسلوب حاد من التهكم والتشهير : « هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟ » هل ندلكم على رجل عجيب غريب ، ينطق بقول مستنكر بعيد ، حتى ليقول : إنكم بعد الموت والبلى والتمزق الشديد تخلقون من جديد ، وتعودون للوجود ؟ !

ويمضون فى العجب والتعجيب ، والاستنكار والتشهير : « أفترى على الله كذباً أم به جنة ؟ » . . فما يقول مثل هذا الكلام ـ بزعمهم ـ إلا كاذب يفترى على الله مالم يقله ، أو مسته الجن فهو يهذى أو ينطق بالعجيب الغريب !

ولم هذا كله ؟ لأنه يقول لهم : إنكم ستخلقون خلقا جديداً ! وفيم العجب وهم قد خلقوا ابتداء ؟ إنهم لاينظرون هذه العجيبة الواقعة . عجيبة خلقهم الأول. ولو قد نظروها وتدبروها ماعجبوا أدنى عجب للخلق الجديد . ولكنهم ضالون لايهتدون . ومن ثم يعقب على تشهيرهم وتعجيبهم تعقيباً شديداً مرهوباً :

« بل الذين لايؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » . .

وقد يكون المقصود بالعذاب الذى هم فيه عذاب الآخرة ، فهو لتحققه كأنهم واقعون فيه ، وقوعهم فى الضلال البعيد الذى لايرجى معه اهتداء . . وقد يكون هذا تعبيراً عن معنى آخر . معنى أن الذين لايؤمنون بالآخرة يعيشون فى عـذاب كما يعيشون فى ضـلال . وهى حقيقة عميقة . فالذى يعيش بلاعقيدة فى الآخرة يعيش فى عذاب نفسى . لاأمل له ولا رجاء فى نصفة ولاعـدل ولا جزاء ولاعوض عما يلقاه فى الحياة . وفى الحياة مواقف وابتلاءات لايقوى الإنسان علىمواجهتها إلا وفى نفسه رجاء الآخرة ، وثوابها للمحسن وعقابها للمسئ . وإلا ابتغاء وجه الله والتطلع إلى رضاه فى ذلك العالم الآخر ، الذى لاتضيع فيـه صغيرة ولا كبيرة ؛ وإن تـكن مثقال حبة من خردل فتـكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بهـا الله . والذى يحرم هذه النافذة المضيئة الندية المريحة يعيش ولاريب فى العذاب كما يعيش فى الضلال . يعيش فيهما وهو حى على هذه الأرض قبل أن يلقى عذاب الآخرة جزاء على هذا العذاب الذى لقيه فى دنياه !

إن الاعتقاد بالآخرة رحمة ونعمة يهبهما الله لمن يستحقهما من عباده بإخـلاص القلب ، وتحرى الحق ، والرغبة فى الهـدى . وأرجح أن هذا هو الذى تشير إليه الآية ، وهى تجمع على الذين لايؤمنون بالآخرة بين العذاب والضلال البعيد .

***

هؤلاء المـكذبون بالآخرة يوقظهم بعنف على مشهد كونى يصور لهم أنه واقع بهم ـ لوشاء الله ـ وظلوا هم فى ضلالهم البعيد . مشهد الأرض تخسف بهم والسماء تتساقط قطعا عليهم :

« أفلم يروا إلى مابين أيديهم وماخلفهم من السماء والأرض ؟ إن نشأ نخسف بهم الأرض ، أو نسقط عليهم كسفاً من السماء . إن فى ذلك لآية لـكل عبد منيب . .

وهو مشهد كونى عنيف ، منتزع فى الوقت ذاته من مشاهداتهم أو من مدركاتهم المشهودة على كل حال . فخسف الأرض يقع ويشهده الناس . وترويه القصص والروايات أيضاً . وسقوط قطع من السماء يقع كذلك عند سقوط الشهب وحدوث الصواعق . وهم رأوا شيئاً من هذا أو سمعوا عنه . فهذه اللمسة توقظ الغفاة الغافلين ، الذين يستبعدون مجئ الساعة . والعذاب أقرب إليهم لوأراد الله أن يأخذهم به فى هذه الأرض قبل قيام الساعة . يمكن أن يقع بهم من هذه الأرض وهذه السماء التى يجدونها من بين أيديهم ومن خلفهم ، محيطة بهم ، وليست بعيدة عنهم بعد الساعة المغيبة فى علم الله . ولايأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون .

وفى هذا الذى يشهدونه من السماء والأرض ، والذى يتوقع من خسف الأرض فى أية لحظة أو سقوط قطع من السماء . فى هذا آية للقلب الذى يرجع ويثوب :

« إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب » .. لا يضل ذلك الضلال البعيد ..

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً . يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ، وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ، وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

« وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ، وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَايَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ . اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ * فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَادَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَالَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ .

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ . جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ . كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ . بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ؟ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ، وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ . سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا : رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

« وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ، إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ » ..

يحوى هذا الشوط صورا من الشكر والبطر ؛ وصورا من تسخير الله لمن يشاء من عباده قوى وخلقا لا تسخر عادة للبشر. ولكن قدرة الله ومشيئته لا يقيدهما مألوف البشر. وتتكشف من خلال هذه الصور وتلك حقائق عن الشياطين الذين كان يعبدهم بعض المشركين ، أو يطلبون عندهم علم الغيب وهم عن الغيب محجوبون . وعن أسباب الغواية التى يتسلط بها الشيطان على الإنسان ، وماله عليه من سلطان إلا ما يعطيه من نفسه باختياره . وعن تدبير الله فى كشف ما هو مكنون من عمل الناس وبروزه فى صورة واقعة لينالوا عليه الجزاء فى الآخرة. وبذكر الآخرة ينتهى هذا الشوط كما انتهى الشوط الأول فى السورة ..

***

« ولقد آتينا داود منا فضلا . ياجبال أوبى معه والطير . وألنا له الحديد أن اعمل سابغات ، وقدر فى السرد ، واعملوا صالحا . إنى بما تعملون بصير » ..

وداود عبد منيب ، كالذى ختم بذكره الشوط الأول : « إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب » .. والسياق يعقب بقصته بعد تلك الإشارة ؛ ويقدم لها بذكر ما آتاه الله له من الفضل . ثم يبين هذا الفضل :

« ياجبال أوبى معه والطير » ..

وتذكر الروايات أن داود عليه السلام أوتى صوتا جميلا خارقا فى الجمال ؛ كان يرتل به مزاميره ، وهى تسابيح دينية ، وورد منها فى كتاب « العهد القديم » ما الله أعلم بصحته . وفى الصحيح أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سمع صوت أبى موسى الأشعرى — رضى الله عنه — يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته . ثم قال — صلى الله عليه وسلم — : « لقد أوتى هذا مزمارا من زمامير آل داود » .

والآية تصور من فضل الله على داود — عليه السلام — أنه قد بلغ من الشفافية والتجرد فى تسابيحه أن انزاحت الحجب بينه و بين الكائنات ؛ فاتصلت حقيقتها بحقيقته ، فى تسبيح بارئها

وبارئه ؛ ورجعت معه الجبال والطير ، إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا حاجز ، حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة ؛ تنزاح معها الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع ، وبين كائن من خلق الله وكائن ؛ وترتد كلها إلى حقيقتها اللدنية الواحدة ، التي كانت تغشى عليها الفواصل والفوارق ؛ فإذا هي تتجاوب في تسبيحها للخالق ، وتتلاقى في نغمة واحدة ، وهي درجة من الإشراق والصفاء والتجرد لا يبلغها أحد إلا بفضل من الله ، يزيح عنه حجاب كيانه المادي ، ويرده إلى كينونته اللدنية التي يلتقي فيها بهذا الوجود ، وكل ما فيه وكل من فيه بلا حواجز ولا سدود .

وحين انطلق صوت داود — عليه السلام — يرتل مزاميره ويمجد خالقه ، رجعت معه الجبال والطير ، وتجاوب الكون بتلك الترانيم السارية في كيانه الواحد ، المتجهة إلى بارئه الواحد .. وإنها للحظات عجيبة لا يتذوقها إلا من عنده بها خبر ، ومن جرب نوعها ولو في لحظة من حياته !

« وألنا له الحديد » .

وهو طرف آخر من فضل الله عليه . وفي ظل هذا السياق يبدو أن الأمر كان خارقة ليست من مألوف البشر . فلم يكن الأمر أمر تسخين الحديد حتى يلين ويصبح قابلا للطرق ، إنما كان — والله أعلم — معجزة يلين بها الحديد من غير وسيلة اللين المعهودة . وإن كان مجرد الهداية لإلانة الحديد بالتسخين يعد فضلا من الله يذكر . ولكننا إنما نتأثر جو السياق وظلاله وهو جو معجزات ، وهي ظلال خوارق خارجة على المألوف .

« أن اعمل سابغات وقدر في السرد » .

والسابغات الدروع . روى أنها كانت تعمل قبل داود — عليه السلام — صفائح . الدرع صفيحة واحدة ، فكانت تصلب الجسم وتثقله . فألهم الله داود أن يصنعها رقائق متداخلة متموجه لينة يسهل تشكيلها وتحريكها بحركة الجسم ؛ وأمر بتضييق تداخل هذه الرقائق لتكون محكمة لا تنفذ منها الرماح . وهو التقدير في السرد . وكان الأمر كله إلهاما وتعليما من الله .

وخوطب داود وأهله :

« واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير » ..

لا فى الدروع وحدها بل فى كل ما تعملون ؛ مراقبين الله الذى يبصر ما تعملون ويجازى عليه ، فلا يفلت منه شىء ، والله به بصير ..

***

ذلك ما آتاه الله داود — عليه السلام — فأما سليمان فقد آتاه الله أفضالا أخرى :

« ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه . ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب . وقدور راسيات . اعملوا آل داود شكرا . وقليل من عبادى الشكور » .

وتسخير الريح لسليمان تتكاثر حوله الروايات ، وتبدو ظلال الإسرائيليات واضحة فى تلك الروايات — وإن تكن كتب اليهود الأصلية لم تذكر شيئاً عنها — والتحرج من الخوض فى تلك الروايات أولى . والاكتفاء بالنص القرآنى أسلم . مع الوقوف به عند ظاهر اللفظ لا نتعداه . ومنه يستفاد أن الله سخر الريح لسليمان ، وجعل غدوها أى توجهها غادية إلى بقعة معينة ( ذكر فى سورة الأنبياء أنها الأرض المقدسة ) يستغرق شهرا ، ورواحها أى انعكاس اتجاهها فى الرواح يستغرق شهراً كذلك . وفق مصلحة تحصل من غدوها ورواحها ، يدركها سليمان — عليه السلام — ويحققها بأمر الله .. ولا نملك أن نزيد هذا إيضاحا حتى لا ندخل فى أساطير لا ضابط لها ولا تحقيق .

« وأسلنا له عين القطر » ..

والقطر النحاس . وسياق الآيات يشير إلى أن هذا كان معجزة خارقة كإلانة الحديد لداود . وقد يكون ذلك بأن فجر الله له عينا بركانية من النحاس المذاب من الأرض . أو بأن ألهمه الله إذابة النحاس حتى يسيل ويصبح قابلا للصب والطرق . وهو فضل من الله كبير .

« ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه » ..

وكذلك سخر له طائفة من الجن يعملون بأمره بإذن ربه . والجن كل مستور لا يراه البشر . وهناك خلق سماهم الله الجن ولا نعرف نحن من أمرهم شيئاً إلا ما ذكره الله عنهم . وهو يذكر هنا أن الله سخر طائفة منهم لنبيه سليمان — عليه السلام — فمن عصى منهم ناله عذاب الله :

« ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير » ..

ولعل هذا التعقيب ـ قبل الانتهاء من قصة التسخير ـ يذكر على هذا النحو لبيان خضوع الجن لله . وكان بعض المشركين يعبدهم من دون الله . وهم مثلهم معرضون للعقاب عند ما يزيغون عن أمر الله .

وهم مسخرون لسليمان ـ عليه السلام ـ :

« يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » ..

والمحاريب من أماكن العبادة ، والتماثيل الصور من نحاس وخشب وغيره . والجوابى جمع جابية وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء . وقد كانت الجن تصنع لسليمان جفاناً كبيرة للطعام تشبه الجوابى ، وتصنع له قدورا ضخمة للطبخ راسية لضخامتها . . وهذه كلها نماذج مما سخر الله الجن لسليمان لتقوم له به حيث شاء بإذن الله . وكلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تعليلها إلا بأنها خارقة من صنع الله . وهذا هو تفسيرها الواضح الوحيد .

ويختم هذا بتوحيد الخطاب إلى آل داود :

« اعملوا آل داود شكرا » ..

سخرنا لكم هذا وذلك فى شخص داود وشخص سليمان ـ عليهما السلام ـ فاعملوا يا آل داود شكراً لله . لا للتباهى والتعالى بما سخره الله . والعمل الصالح شكر لله كبير .

« وقليل من عبادى الشكور » ..

تعقيب تقريرى وتوجيهى من تعقيبات القرآن على القصص . يكشف من جانب عن عظمة فضل الله ونعمته حتى ليقل القادرون على شكرها . ويكشف من جانب آخر عن تقصير البشر فى شكر نعمة الله وفضله . وهم مهما بالغوا فى الشكر قاصرون عن الوفاء . فكيف إذا قصروا وغفلوا عن الشكر من الأساس ؟!

وماذا يملك المخلوق الإنسانى المحدود الطاقة من الشكر على آلاء الله وهى غير محدودة ؟.. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . . وهذه النعم تغمر الإنسان من فوقه ومن تحت قدميه ، وعن أيمانه وعن شمائله ، وتكمن فيه هو ذاته وتفيض منه . وهو ذاته إحدى هذه الآلاء الضخام !

كنا نجلس جماعة نتحدث وتتجاوب أفكارنا وتتجاذب ، وتنطلق ألسنتنا بكل ما يخطر لنا على بال . ذلك حينما جاء قطنا الصغير « سوسو » يدور هنا وهناك من حولنا ، يبحث عن شيء ؛ وكأنما يريد أن يطلب إلينا شيئا ، ولكنه لا يملك أن يقول ؛ ولا نملك نحن أن ندرك . حتى ألهمنا الله أنه يطلب الماء . وكان هذا . وكان فى شدة العطش . وهو لا يملك أن يقول ولا أن يشير . . وأدركنا فى هذه اللحظة شيئا من نعمة الله علينا بالنطق واللسان ، والإدراك والتدبير . وفاضت نفوسنا بالشكر لحظة . . وأين الشكر من ذلك الفيض الجزيل .

وكنا فترة طويلة محرومين من رؤية الشمس . وكان شعاع منها لا يتجاوز حجمه حجم القرش ينفذ إلينا أحيانا . وإن أحدنا ليقف أمام هذا الشعاع يمرره على وجهه ويديه وصدره وظهره وبطنه وقدميه ما استطاع . ثم يخلى مكانه لأخيه ينال من هذه النعمة ما نال ! ولست أنسى أول يوم بعد ذلك وجدنا فيه الشمس . لست أنسى الفرحة الغامرة والنشوة الظاهرة على وجه أحدنا ، وفى جوارحه كلها ، وهو يقول فى نغمة عميقة مديدة .. الله ! هذه هى الشمس . شمس ربنا وما تزال تطلع .. الحمد لله !

فكم نبعثر فى كل يوم من هذه الأشعة المحيية ، ونحن نستحم فى الضوء والدفء . ونسبح ونغرق فى نعمة الله ؟ وكم نشكر هذا الفيض الغامر التاح المباح من غير ثمن ولا كد ولا معاناة ؟ !

وحين نمضى نستعرض آلاء الله على هذا النحو فإننا ننفق العمر كله ، ونبذل الجهد كله ، ولا نبلغ من هذا شيئا . فنكتفى إذن بهذه الإشارة الموحية ، على طريقة القرآن فى الإشارة والإيماء ، ليتدبرها كل قلب ، ويمضى على إثرها ، قدر ما يوفقه الله لنعمة الشكر ، وهى إحدى آلاء الله ، يوفق إليها من يستحقها بالتوجه والتجرد والإخلاص ..

ثم نمضى مع نصوص القصة القرآنية فى المشهد الأخير منها . مشهد وفاة سليمان والجن ماضية تعمل بأمره فيما كلفها عمله ؛ وهى لا تعلم نبأ موته ، حتى يدلهم على ذلك أكل الأرضة لعصاه ، التى كان مرتكزا عليها ، وسقوطه :

« فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » ..

وقد روى أنه كان متكئا على عصاه حين وافاه أجله ؛ والجن تروح وتجيء مسخرة فيما كلفها إياه من عمل شاق شديد ؛ فلم تدرك أنه مات ، حتى جاءت دابة الأرض . قيل إنها الأرضة ،

التى تتغذى بالأخشاب ، وهى تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة فظيعة ، فى الأماكن التى تعيش فيها . وفى صعيد مصر قرى تقيم منازلها دون أن تضع فيها قطعة خشب واحدة خوفا من هذه الحشرة التى لا تبقى على المادة الخشبية ولا تذر . فلما نخرت عصا سليمان لم تحمله فخر على الأرض. وحينئذ فقط علمت الجن موته . وعندئذ « تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » ..

فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس . هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله . وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب ؛ وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد !

***

وفى قصة آل داود تعرض صفحة الإيمان بالله والشكر على أفضاله وحسن التصرف فى نعمائه . والصفحة المقابلة هى صفحة سبأ . وقد مضى فى سورة النمل ما كان بين سليمان وبين ملكتهم من قصص . وهنا يجىء نبؤهم بعد قصة سليمان . مما يوحى بأن الأحداث التى تتضمنها وقعت بعد ما كان بينها وبين سليمان من خبر .

يرجح هذا الفرض أن القصة هنا تتحدث عن بطر سبأ بالنعمة وزوالها عنهم وتفرقهم بعد ذلك وتمزقهم كل ممزق . وهم كانوا على عهد الملكة التى جاء نبؤها فى سورة النمل مع سليمان فى ملك عظيم ، وفى خير عميم . ذلك إذ يقص الهدهد على سليمان : « إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » . . وقد أعقب ذلك إسلام الملكة مع سليمان لله رب العالمين . فالقصة هنا تقع أحداثها بعد إسلام الملكة لله ؛ وتحكى ما حل بهم بعد إعراضهم عن شكره على ما كانوا فيه من نعيم .

وتبدأ القصة بوصف ما كانوا فيه من رزق ورغد ونعيم ، وما طلب إليهم من شكر النعم بقدر ما يطيقون :

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له. بلدة طيبة ورب غفور » ..

وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبى اليمن ؛ وكانوا فى أرض مخصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم . وقد ارتقوا فى سلم الحضارة حتى تحكموا فى مياه الأمطار الغزيرة التى تأتيهم من البحر فى الجنوب والشرق ، فأقاموا خزانا طبيعيا يتألف جانباه من جبلين ، وجعلوا على

فم الوادى بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق ، وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد ، وتحكموا فيها وفق حاجتهم . فكان لهم من هذا مورد مائى عظيم . وقد عرف باسم : « سد مأرب » .

وهذه الجنان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ، ومن ثم كانت آية تذكر بالمنعم الوهاب . وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين :

« كلوا من رزق ربكم واشكروا له » ..

وذكروا بالنعمة . نعمة البلد الطيب وفوقها نعمة الغفران على القصور من الشكر والتجاوز عن السيئات .

« بلدة طيبة ورب غفور » ..

سماحة فى الأرض بالنعمة والرخاء . وسماحة فى السماء بالعفو والغفران . فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران ؟

ولكنهم لم يشكروا ولم يذكروا :

« فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل : خمط وأثل وشىء من سدر قليل » ..

أعرضوا عن شكر الله ، وعن العمل الصالح ، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم ، فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذى يعيشون فيه ؛ وأرسل السيل الجارف الذى يحمل العرم فى طريقه وهى الحجارة لشدة تدفقه ، فحطم السد وانساحت المياه فطغت وأغرقت ؛ ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت واحترقت . وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة:

« وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل : خمط وأثل وشىء من سدر قليل » ..

والخمط شجر الأراك أو كل شجر ذى شوك . والأثل شجر يشبه الطرفاء . والسدر النبق . وهو أجود ما صار لهم ولم يعد لهم منه إلا قليل !

« ذلك جزيناهم بما كفروا » ..

والأرجح أنه كفران النعمة ..

« وهل نجازى إلا الكفور » ..

وكانوا إلى هذا الوقت ما يزالون فى قراهم وبيوتهم . ضيق الله عليهم فى الرزق ، وبدلهم من الرفاهيــة والنعماء خشونة وشدة ؛ ولـكنه لم يمزقهم ولم يفرقهم . وكان العمران ما يزال متصلا بينهم وبين القرى المباركة : مـكة فى الجزيرة ، وبيت المقدس فى الشام . فقد كانت اليمن ما تزال عامرة فى شمال بلاد سبأ ومتصلة بالقرى المباركة . والطريق بينهما عامر مطروق مسلوك مأمون :

« وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدّرنا فيها السير . سيروا فيها ليالى وأياما آمنين » ..

وقيل كان المسافر يخرج من قرية فيدخل الأخرى قبل دخول الظلام . فـكان السفر فيها محدود المسافات ، مأمونا على المسافرين . كما كانت الراحة موفورة لتقارب المنازل وتقارب المحطات فى الطريق .

وغلبت الشقوة على سبأ ، فلم ينفعهم النذير الأول ؛ ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله ، لعله يرد عليهم ماذهب من الرخاء . بل دعوا دعوة الحمق والجهل :

« فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا » ..

تطلبوا الأسفار البعيدة المدى ؛ التى لا تقع إلا مرات متباعدة على مدار العام . لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل ، التى لا تشبع لذة الرحلات ! وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس :

« وظلموا أنفسهم » ..

واستجيبت دعوتهم ، ولـكن كما ينبغى أن تستجاب دعوة البطر :

« فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » ..

شردوا ومزقوا ؛ وتفرقوا فى أنحاء الجزيرة مبددى الشمل ؛ وعادوا أحاديث يرويهـا الرواة ، وقصة على الألسنة والأفواه . بعد أن كانوا أمة ذات وجود فى الحياة .

« إن فى ذلك لآيات لـكل صبار شـكور » ..

يذكر الصبر إلى جوار الشكر .. الصبر فى البأساء . والشـكر فى النعماء . وفى قصة سبأ آيات لهؤلاء وهؤلاء .

هـذا فهم فى الآية . وهناك فهم آخر . فقد يكون المقصود بقوله : « وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة » .. أى قرى غالبة ذات سلطان . بينما تحول سبأ إلى

قوم فقراء ، حياتهم صحراوية جافة . وكثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعى ومواضع الماء . فلم يصبروا على الابتلاء . وقالوا : « ربنا باعد بين أسفارنا » . . أى قلل من أسفارنا فقد تعبنا . ولم يصحبوا هـذا الدعاء باستجابة وإنابة لله تستحق استجابته لدعائهم . وكانوا قد بطروا النعمة ، ولم يصبروا للمحنة . ففعل الله بهم مافعل ، ومزقهم كل ممزق ؛ فأصبحوا أثرا بعد عين ، وحديثا يروى وقصة تحكى . . ويكون التعقيب : « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . . مناسبا لقلة شكرهم على النعمة ، وقلة صبرهم على المحنة . . وهو وجه رأيته فى الآية والله أعلم بمراده .

* * *

وفى ختام القصة يخرج النص من إطار القصة المحدود ، إلى إطار التدبير الإلهى العام ، والتقدير المحكم الشامل ، والسنة الإلهية العامة ؛ ويكشف عن الحكمة المستخلصة من القصة كلها ، وما يكمن فيها وخلفها من تقدير وتدبير :

«ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه . إلا فريقاً من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك . وربك على كل شىء حفيظ » . .

لقد سلك القوم هذا المسلك ، الذى انتهى إلى تلك النهاية ، لأن إبليس صدق عليهم ظنه فى قدرته على غوايتهم ، فأغواهم ، « فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين » . . كما يقع عادة فى الجماعات فلا تخلو من قلة مؤمنة تستعصى على الغواية ؛ وتثبت أن هنالك حقاً ثابتاً يعرفه من يطلبه ؛ ويمكن لكل من أراد أن يجده وأن يستمسك به ، حتى فى أحلك الظروف . وما كان لإبليس من سلطان قاهر عليهم لايملكون رفعه . فليس هنالك قهر لهم منه ولا سيطرة عليهم له . إنما هو تسليطه عليهم ليثبت على الحق من يثبت ، وليزيغ منهم من لايبتغى الحق ويتحراه . وليظهر فى عالم الواقع « من يؤمن بالآخرة » فيعصمه إيمانه من الانحراف ، « ممن هو منها فى شك » . . فهو يتأرجح أو يستجيب للغواية . بلا عاصم من رقابة لله ولا تطلع لليوم الآخر .

والله يعلم مايقع قبل ظهوره للناس . ولكنه سبحانه يرتب الجزاء على ظهوره ووقوعه فعلا فى دنيا الناس .

وفى هذا المجال الواسع المفتوح . مجال تقدير الله وتدبيره للأمور والأحداث . ومجال غواية إبليس للناس ، بلا سلطان قاهر عليهم ، إلا تسليطه ليظهر المكنون فى علم الله من المصائر والنتائج . . فى هذا المجال الواسع تتصل قصة سبأ بقصة كل قوم ، فى كل مكان وفى كل زمان .

ويتسع مجال النص القرآني ومجال هـذا التعقيب ، فلا يعود قاصرا على قصة سبأ ، إنمـا يصلح تقريرا لحال البشر أجمعـين . فهى قصة الغواية والهداية وملابساتهما وأسبابهما وغاياتهما ونتائجهما فى كل حال .

« وربك على كل شيء حفيظ » . .

فلا يند شيء ولا يغيب ، ولا يهمل شيء ولا يضيع . .

* * *

وهكذا تنتهى الجولة الثانية فى السـورة بالحديث عن الآخرة كما انتهت الجولة الأولى . وبالتركيز على عـلم الله وحفظه . وهما الموضوعان اللذان يشتد عليهما التركيز فى السـورة والتوكيد .

« قُلِ : ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : ٱلْحَقَّ ، وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ .

« قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ؟ قُلِ : ٱللهُ ، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

« قُلْ : لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ، وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

« قُلْ : يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ، ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ، وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ .

« قُلْ : أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ . كَلَّا . بَلْ هُوَ ٱللهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » .

إنها جولة قصيرة حول قضية الشرك والتوحيد . ولـكنها جولة تطوّف بالقلب البشرى فى مجال الوجود كله . ظاهره وخافيه . حاضره وغيبه . سمائه وأرضه . دنياه وآخرته . وتقف به

مواقف مرهوبة ترجف فيها الأوصال ؛ ويغشاها الذهول من الجلال . كما تقف به أمام رزقه وكسبه ، وحسابه وجزائه . وفي زحمة التجمع والاختلاط ، وفي موقف الفصل والعزل والتميز والانفراد . كل أولئك في إيقاعات قوية ، وفواصل متلاحقة ، وضربات كأنها المطارق : « قل .. قل .. قل .. » كل قولة منها تدمغ بالحجة ، وتصدع بالبرهان في قوة وسلطان .

* * *

« قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله . لايملكون مثقال ذرة في السماوات ولافي الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير » . .

إنه التحدي في مجال السماوات والأرض على الإطلاق :

« قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله » . .

ادعوهم . فليأتوا . وليظهروا . وليقولوا أو لتقولوا أنتم ماذا يملكون من شيء في السماوات أو في الأرض جل أو هان ؟

« لايملكون مثقال ذرة في السماوات ولافي الأرض » . .

ولاسبيل لأن يدعوا ملكية شيء في السماوات أو في الأرض . فالمالك لشيء يتصرف فيه وفق مشيئته . فماذا يملك أولئك المزعومون من دون الله ؟ وفي أي شيء يتصرفون تصرف المالك في هذا الكون العريض ؟

لايملكون في السماوات والأرض مثقال ذرة ملكية خالصة ، ولاعلى سبيل المشاركة :

« ومالهم فيهما من شرك » . .

والله ـ سبحانه ـ لايستعين بهم في شيء . فما هو في حاجة إلى معين :

« وماله منهم من ظهير » . .

ويظهر أن الآية هنا تشير إلى نوع خاص من الشركاء المزعومين . وهم الملائكة الذين كانت العرب تدعوهم بنات الله ؛ وتزعم لهم شفاعة عند الله . ولعلهم ممن قالوا عنهم : « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . . ومن ثم نفى شفاعتهم لهم في الآية التالية . وذلك في مشهد تتفزع له الأوصال في حضرة ذي الجلال :

« ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » . .

فالشفاعة مرهونة بإذن الله . والله لا يأذن في الشفاعة في غير المؤمنين به المستحقين لرحمته .

فأما الذين يشركون به فليسوا أهلا لأن يأذن بالشفاعة فيهم ، لا للملائكة ولا لغيرهم من المأذونين بالشفاعة منذ الابتداء !

ثم صور المشهد الذى تقع فيه الشفاعة ؛ وهو مشهد مذهل مرهوب :

« حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير » ..

إنه مشهد فى اليوم العصيب . يوم يقف الناس ، وينتظر الشفعاء والمشفوع فيهم أن يتأذن ذو الجلال فى عليائه بالشفاعة لمن ينالون هذا المقام . ويطول الانتظار . ويطول التوقع . وتعنو الوجوه . وتسكن الأصوات . وتخشع القلوب فى انتظار الإذن من ذى الجلال والإكرام .

ثم تصدر الكلمة الجليلة الرهيبة ، فتنتاب الرهبة الشافعين والمشفوعين لهم . ويتوقف إدراكهم عن الإدراك.

« حتى إذا فزع عن قلوبهم » .. وكشف الفزع الذى أصابهم ، وأفاقوا من الروعة التى غمرتهم فأذهلتهم . « قالوا : ماذا قال ربكم ؟ » يقولها بعضهم لبعض . لعل منهم من يكون قد تماسك حتى وعى . « قالوا : الحق » .. ولعلهم الملائكة المقربون هم الذين يجيبون بهذه الكلمة المجملة الجامعة : « قالوا الحقّ » . قال ربكم : الحق . الحقّ الكلى . الحق الأزلى . الحق اللدنى . فكل قوله الحق . « وهو العلى الكبير » .. وصف فى المقام الذى يتمثل فيه العلو والكبر للإدراك من قريب . .

وهذه الإجابة المجملة تشى بالروعة الغامرة ، التى لا ينطق فيها إلا بالكلمة الواحدة !

فهذا هو موقف الشفاعة المرهوب . وهذه صورة الملائكة فيه بين يدى ربهم . فهل بعد هذا المشهد يملك أحد أن يزعم أنهم شركاء لله ، شفعاء فى من يشرك بالله ؟ !

* * *

ذلك هو الإيقاع الأول ، فى ذلك المشهد الخاشع الواجف المرهوب العسير . . ويليه الإيقاع الثانى عن الرزق الذى يستمتعون به ، ويغفلون عن مصدره ، الدال على وحدة الخالق الرازق . الباسط القابض ، الذى ليس له شريك :

« قل من يرزقكم من السماوات والأرض .. قل : الله . وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » ..

والرزق مسألة واقعة فى حياتهم . رزق السماء من مطر وحرارة وضوء ونور . . ذلك

فيما كان يعرفه المخاطبون ووراءه كثير من الأصناف والألوان تتكشف آنا بعد آن . . ورزق الأرض من نبات وحيوان وعيون ماء وزيوت ومعادن وكنوز . . وغيرها مما يعرفه القدامى ويتكشف غيره على مدار الزمان . .

« قل : من يرزقكم من السماوات والأرض ؟ » . .

« قل : الله » . .

فما علكون أن يماروا فى هذا ولا أن يدعوا سواه .

قل : الله . ثم كل أمرهم وأمرك إلى الله . فأحدكما لا بد مهتد وأحدكما لا بد ضال . ولا يمكن أن تكون أنت وهم على طريق واحد من هدى أو من ضلال :

« وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » . .

وهذه غاية النصفة والاعتدال والأدب فى الجدال . أن يقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — للمشركين : إن أحدنا لا بد أن يكون على هدى ، والآخر لابد أن يكون على ضلال . ثم يدع تحديد المهتدى منهما والضال . ليثير التدبر والتفكر فى هدوء لا تغشى عليه العزة بالإثم ، والرغبة فى الجدال والمحال ! فإنما هو هاد ومعلم ، يبتغى هداهم وإرشادهم لا إذلالهم وإفحامهم ، لمجرد الإذلال والإفحام !

الجدل على هذا النحو المهذب للوحى أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين المتطاولين بالجاه والمقام ، المستكبرين على الإذعان والاستسلام . وأجدر بأن يثير التدبر الهادئ والاقتناع العميق . وهو نموذج من أدب الجدل ينبغى تدبره من الدعاة . .

* * *

ومنه كذلك الإيقاع الثالث ، الذى يقف كل قلب أمام عمله وتبعته ، فى أدب كذلك وقصد وإنصاف :

« قل : لا تسألون عما أجرمنا ، ولا نسأل عما تعملون » . .

ولعل هذا كان ردا على اتهام المشركين بأن الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومن معه هم المخطئون الجارمون ! وقد كانوا يسمونهم : « الصابئين » أى المرتدين عن دين الآباء والأجداد . وذلك كما يقع من أهل الباطل أن يتهموا أهل الحق بالضلال ! فى تبجح وفى غير ما استحياء !

« قل : لا تسألون عما أجرمنا ، ولا نسأل عما تعملون » . .

فلكل عمله . ولكل تبعته ولكل جزاؤه .. وعلى كل أن يتدبر موقفه ، ويرى إن كان يقوده إلى فلاح أو إلى بوار .

وبهذه اللمسة يوقظهم إلى التأمل والتدبر والتفكر . وهذه هى الخطوة الأولى فى رؤية وجه الحق . ثم فى الاقتناع .

* * *

ثم الإيقاع الرابع :

« قل : يجمع بيننا ربنا ، ثم يفتح بيننا بالحق ، وهو الفتاح العليم » . .

ففى أول الأمر يجمع الله بين أهل الحق وأهل الباطل ، ليلتقى الحق بالباطل وجها لوجه ، وليدعوا أهل الحق إلى حقهم ، ويعالج الدعاة دعوتهم . وفى أول الأمر تختلط الأمور وتتشابك ، ويصطرع الحق والباطل ؛ وقد تقوم الشبهات أمام البراهين ؛ وقد يغشى الباطل على الحق . . ولكن ذلك كله إلى حين . . ثم يفصل الله بين الفريقين بالحق ، ويحكم بينهم حكمه الفاصل المميز الحاسم الأخير .. « وهو الفتاح العليم » . . الذى يفصل ويحكم عن علم وعن معرفة بين المحقين والمبطلين . .

وهذا هو الاطمئنان إلى حكم الله وفصله . فالله لابد حاكم وفاصل ومبين عن وجه الحق . وهو لايترك الأمور مختلطة إلا إلى حين . ولايجمع بين المحقين والمبطلين إلا ريثما يقوم الحق بدعوته ، ويبذل طاقته ، ويجرب تجربته ؛ ثم يمضى الله أمره ويفصل بفصله .

والله سبحانه هو الذى يعلم ويقدر متى يقول كلمة الفصل . فليس لأحد أن يحدد موعدها ، ولا أن يستعجلها . فالله هو الذى يجمع وهو الذى يفتح . « وهو الفتاح العليم » ..

* * *

ثم يأتى الإيقاع الأخير ، شبيها بالإيقاع الأول فى التحدى عن الشركاء المزعومين :

« قل : أرونى الذين ألحقتم به شركاء . كلا . بل هو الله العزيز الحكيم » . .

وفى السؤال استنكار واستخفاف : « أرونى الذين ألحقتم به شركاء » . . أرونى إياهم . من هم ؟ وماهم ؟ وما قيمتهم ؟ وما صفتهم ؟ وما مكانهم ؟ وبأى شىء استحقوا منكم هذه الدعوى ؟ .. وكلها تشى بالاستنكار والاستخفاف .

ثم الإنكار فى ردع وتأنيب : « كلا » . . فماهم بشركاء . وماله سبحانه من شركاء . « بل هو الله العزيز الحكيم » . .

ومن هذه صفاته لايكون هؤلاء شركاء له . ولا يكون له على الإطلاق شريك . .

* * *

بهذا ينتهي ذلك الشوط القصير ، وتلك الإيقاعات العنيفة العميقة . في هيكل الكون الهائل . وفي موقف الشفاعة المرهوب . وفي مصطرع الحق والباطل . وفي أعماق النفوس وأغوار القلوب .

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ : مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ : لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ .

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَنْ نُؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ . وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ، يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا : أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟

« وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ، وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ * وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَـٰئِكَ فِي

الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟* قَالُوا : سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً ، وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا : ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » . .

هذه الجولة تتناول موقف الذين كفروا مما جاءهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وموقف المترفين من كل رسالة ، وهم الذين تغرهم أموالهم وأولادهم ، وما يجدون من أعراض هذه الدنيا في أيديهم ، فيحسبونها دليلا على اختيارهم وتفضيلهم ؛ ويحسبون أنها مانعتهم من العذاب في الدنيا والآخرة . ومن ثم يعرض عليهم مشاهدهم في الآخرة ، كأنها واقعة ، ليروا إن كان شيء من ذلك نافعا لهم أو واقيا . وفي هذه المشاهد يتضح كذلك أنه لا الملائكة ولا الجن الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ، ويستعينونهم يملكون لهم في الآخرة شيئا .. وفي خلال الجدل يوضح القرآن حقيقة القيم التي لها ثقل في ميزان الله ؛ فتنكشف القيم الزائفة التي يعتزون بها في الحياة ؛ ويتقرر أن بسط الرزق وقبضه أمران يجريان وفق إرادة الله ، وليسا دليلا على رضى أو غضب ولا على قربى أو بعد . إنما ذلك ابتلاء . .

* * *

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » . .

يجيء هذا البيان بعد الجولة الماضية ، وما فيها من تقرير فردية التبعة ؛ وأنه ليس بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل إلا الدعوة والبيان ، وأمرهم بعد ذلك إلى الله .

ويتبعه هنا بيان وظيفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجهلهم بحقيقتها ؛ واستعجالهم له بما

يعدهم ويوعدهم من الجزاء ؛ وتقرير أن ذلك موكول إلى موعده المقدور له فى غيب الله :

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » . .

هذه هى حدود الرسالة العامة للناس جميعاً .. التبشير والإنذار . وعند هذا الحد تنتهى ؛ أما تحقيق هذا التبشير وهذا الإنذار فهو من أمر الله :

« ولكن أكثر الناس لايعلمون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » . .

وهذا السؤال يوحى بجهلهم لوظيفة الرسول ؛ وعدم إدراكهم لحدود الرسالة . والقرآن حريص على تجريد عقيدة التوحيد . فما محمد إلا رسول محدد الوظيفة . وهو قائم فى حدود وظيفته لايتخطاها . والله هو صاحب الأمر . هو الذى أرسله ، وهو الذى حدد له عمله ؛ وليس من عمله أن يتولى — ولا حتى أن يعلم — تحقيق الوعد والوعيد . . ذلك موكول إلى ربه ، وهو يعرف حدوده . فلا يسأل مجرد سؤال عن شىء لم يطلعه عليه ربه ، ولم يكل إليه أمره . وربه يكلفه أن يرد عليهم رداً معيناً فيقوم به :

« قل : لكم ميعاد يوم لاتستأخرون عنه ساعة ولاتستقدمون » . .

وكل ميعاد يجىء فى أجله الذى قدره الله له . لايستأخر لرغبة أحد ، ولايستقدم لرجاء أحد . وليس شىء من هذا عبثا ولامصادفة ، فكل شىء مخلوق بقدر . وكل أمر متصل بالآخر . وقدر الله يرتب الأحداث والمواعيد والآجال وفق حكمته المستورة التى لايدركها أحد من عباده إلا بقدر ما يكشف الله له .

والاستعجال بالوعد والوعيد دليل على عدم إدراك هذه الحقيقة الكلية . ومن ثم فإن أكثر الناس لا يعلمون . وعدم العلم يقودهم إلى السؤال والاستعجال .

***

« وقال الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه » . .

فهو العناد والإصرار ابتداء على رفض الهدى فى كل مصادره . لا القرآن ، ولا الكتب التى سبقته ، والتى تدل على صدقه . فلا هذا ولا ذاك هم مستعدون للإيمان به لا اليوم ولا الغد . ومعنى هذا أنهم يصرون على الكفر ، ويجزمون عن قصد بأنهم لن ينظروا فى دلائل الهدى كائنة ما كانت . فهو العمد إذن وسبق الإصرار !

عندئذ يجبهم بمشهدهم يوم القيامة ، وفيه جزاء هذا الإصرار :

« ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين ! قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى ، بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين ! وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا . . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ؛ وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ » . .

ذلك كان قولهم فى الدنيا : « لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه » . . فلو ترى قولهم فى موقف آخر . لو ترى هؤلاء الظالمين وهم « موقوفون » على غير إرادة منهم ولا اختيار ؛ إنما هم مذنبون بالوقوف فى انتظار الجزاء « عند ربهم » . . ربهم الذى يجزمون بأنهم لن يؤمنوا بقوله وكتبه . ثم هاهم أولاء موقوفون عنده ! لو ترى يومئذ لرأيت هؤلاء الظالمين يلوم بعضهم بعضا ، ويؤنب بعضهم بعضا ، ويلقى بعضهم تبعة ماهم فيه على بعض : « يرجع بعضهم إلى بعض القول » . . فماذا يرجعون من القول ؟

« يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين » . . .

فيلقون على الذين استكبروا تبعة الوقفة المرهوبة المهينة ، ومايتوقعون بعدها من البلاء ! يقولون لهم هذه القولة الجاهرة اليوم ؛ ولم يكونوا فى الدنيا بقادرين على مواجهتهم هذه المواجهة . كان يمنعهم الذل والضعف والاستسلام ، وبيع الحرية التى وهبها الله لهم ، والكرامة التى منحها إياهم ، والإدراك الذى أنعم به عليهم . أما اليوم وقد سقطت القيم الزائفة ، وواجهوا العذاب الأليم ، فهم يقولونها غير خائفين ولا مبقين ! « لولا أنتم لكنا مؤمنين » !

ويضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا . فهم فى البلاء سواء . وهؤلاء الضعفاء يريدون أن يحملوهم تبعة الإغواء الذى صار بهم إلى هذا البلاء ! وعندئذ يردون عليهم باستنكار ، ويجبهونهم بالسب الغليظ :

« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين » !

فهو التخلى عن التبعة ، والإقرار بالهدى ، وقد كانوا فى الدنيا لايقيمون وزنا للمستضعفين ولا يأخذون منهم رأياً ، ولا يعتبرون لهم وجودا ، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة ! أما اليوم — وأمام العذاب — فهم يسألونهم فى إنكار : « أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ » ..

« بل كنتم مجرمين » . . من ذات أنفسكم ، لاتهتدون ، لأنكم مجرمون !

ولو كانوا فى الدنيا لقبع المستضعفون لاينبسون ببنت شفة . ولكنهم فى الآخرة حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة ؛ وتتفتح العيون المغلقة وتظهر الحقائق المستورة . ومن ثم لايسكت المستضعفون ولايخنعون ، بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذى لم يكن يفتر نهارا ولا ليلا للصد عن الهدى ؛ وللتمكين للباطل ، ولتلبيس الحق ، وللامر بالمنكر ، ولاستخدام النفوذ والسلطان فى التضليل والإغواء :

« وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار . إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً » . .

ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لاينفع هؤلاء ولاهؤلاء ، ولا ينجى المستكبرين ولا المستضعفين . فلكل جريمته وإثمه . المستكبرون عليهم وزرهم ، وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم . والمستضعفون عليهم وزرهم ، فهم مسؤولون عن اتباعهم للطغاة ، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين . لقد كرمهم الله بالإدراك والحرية ، فعطلوا الإدراك وباعوا الحرية ؛ ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولا ؛ وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين . فاستحقوا العذاب جميعاً ؛ وأصابهم الكمد والحسرة وهم يرون العذاب حاضراً لهم مهيأ :

« وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » . .

وهى حالة الكمد الذى يدفن الكلمات فى الصدور ، فلا تفوه بها الألسنة ، ولا تتحرك بها الشفاه .

ثم أخذهم العذاب المهين الغليظ الشديد :

« وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا » . .

ثم يلتفت السياق يحدث عنهم وهم مسحوبون فى الأغلال ، مهملا خطابهم إلى خطاب المتفرجين !

« هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ » . .

ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين . وكلاهما ظالم . هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله . وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان ، وإدراك الإنسان ، وحرية الإنسان ، وخنوعه وخضوعه للبغى والطغيان . . وكلهم فى العذاب سواء . لا يجزون إلا ما كانوا يعملون . .

يسدل الستار وقد شهد الظالمون أنفسهم فى ذلك المشهد الحى الشاخص . شهدوا أنفسهم

هناك وهم بعد أحياء فى الأرض . وشهدهم غيرهم كأنما يرونهم . وفى الوقت متسع لتلافى ذلك الموقف لمن يشاء !

* * *

ذلك الذى قاله المترفون من كبراء قريش قاله قبلهم كل مترف أمام كل رسالة :

« وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون » . .

فهى قصة معادة ، وموقف مكرور ، على مدار الدهور . وهو الترف يغلظ القلوب ، ويفقدها الحساسية ؛ ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية ؛ فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل ، ولا تتفتح للنور .

والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل ، ويغرهم ماهم فيه من ثراء وقوة ، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله ؛ ويخالون أنه آية الرضى عنهم ، أو أنهم فى مكان أعلى من الحساب والجزاء :

« وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولاداً ، وما نحن بمعذبين » . .

والقرآن يضع لهم ميزان القيم كما هى عند الله ؛ ويبين لهم أن بسط الرزق وقبضه ، ليست له علاقة بالقيم الثابتة الأصيلة ؛ ولايدل على رضى ولا غضب من الله ؛ ولا يمنع بذاته عذاباً ولايدفع إلى عذاب. إنما هو أمر منفصل عن الحساب والجزاء ، وعن الرضى والغضب ، يتبع قانوناً آخر من سنن الله :

« قل : إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . ولكن أكثر الناس لايعلمون » . .

وهذه المسألة . مسألة بسط الرزق وقبضه ؛ وتعلق وسائل المتاع والزينة أو الحرمان منها . مسألة يحيك منها شىء فى صدور كثيرة . ذلك حين تتفتح الدنيا أحيانا على أهل الشر والباطل والفساد ، ويحرم من أعراضها أحياناً أهل الخير والحق والصلاح ؛ فيحسب بعض الناس أن الله ما كان ليغدق على أحد إلا وهو عنده ذومقام . أو يشك بعض الناس فى قيمة الخير والحق والصلاح ، وهم يرونها محوطة بالحرمان !

ويفصل القرآن هنا بين أعراض الحياة الدنيا والقيم التى ينظر الله إليها . ويقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وأن هذه مسألة ورضاه وغضبه مسألة أخرى ولا علاقة بينهما . وقد يغدق الله الرزق على من هو عليه غاضب كما يغدقه على من هو عليه راض. وقد يضيق الله

على أهل الشر كما يضيق على أهل الخير . ولكن العلل والغايات لاتكون واحدة فى جميع هذه الحالات .

لقد يغدق الله على أهل الشر استدراجاً لهم ليزدادوا سوءاً وبطراً وإفساداً ، ويتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة ، ثم يأخذهم فى الدنيا أو فى الآخرة — وفق حكمته وتقديره — بهذا الرصيد الأثيم ! وقد يحرمهم فيزدادوا شراً وفسوقاً وجريمة ، وجزعاً وضيقاً ويأساً من رحمة الله ، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الشر والضلال .

ولقد يغدق الله على أهل الخير ، ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ما كانوا بالغيها لولم يبسط لهم فى الرزق ، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب واللسان والفعل الجميل ؛ ويدخروا بهذا كله رصيداً من الحسنات يستحقونه عند الله بصلاحهم وبما يعلمه من الخير فى قلوبهم . وقد يحرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان ، وثقتهم بربهم ، ورجاءهم فيه ، واطمئنانهم إلى قدره ، ورضاهم بربهم وحده ، وهو خير وأبقى ؛ وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير والرضوان .

وأياً ما كانت أسباب بسط الرزق وقبضه من عمل الناس ، ومن حكمة الله ، فهى مسألة منفصلة عن أن تكون دليلا بذاتها على أن المال والرزق والأبناء والمتاع قيم تقدم أو تؤخر عند الله. ولكنها تتوقف على تصرف المبسوط لهم فى الرزق أو المضيق عليهم فيه . فمن وهبه الله مالا وولداً فأحسن فيهما التصرف فقد يضاعف له الله فى الثواب جزاء ما أحسن فى نعمة الله . وليست الأموال والأولاد بذاتها هى التى تقربهم من الله ؛ ولكن تصرفهم فى الأموال والأولاد هو الذى يضاعف لهم فى الجزاء :

« وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى . إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون . والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون » . .

ثم يكرر قاعدة أن بسط الرزق وقبضه أمر آخر يريده الله لحكمة منفصلة ؛ وأن ماينفق منه فى سبيل الله هو الذخر الباقى الذى يفيد ، لتقر هذه الحقيقة واضحة فى القلوب :

« قل : إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له . وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » . .

***

ويختم هذه الجولة بمشهدهم محشورين يوم القيامة ، حيث يواجههم الله سبحانه بالملائكة

الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ؟ ثم يذوقون عذاب النار الذى كانوا يستعجلون به ، ويقولون متى هـذا الوعد ؟ كما جاء فى أول هذا الشوط :

« ويوم يحشرهم جميعاً ، ثم يقول للملائـكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا: سبحانك أنت ولينـا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعاً ولاضراً ، ونقول للذين ظلموا : ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تـكذبون » . .

فهؤلاء هم الملائـكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ، أو يتخذونهم عنـده شفعاء . هؤلاء هم يواجهون بهم ، فيسبحون الله تنزيها له من هذا الادعاء ، ويتبرأون من عبادة القوم لهم . فـكأنما هذه العبادة كانت باطلا أصلا، وكأنما لم تقع ولم تـكن لها حقيقة . إنما هم يتولون الشيطان . إما بعبادته والتوجه إليـه ، وإما بطاعته فى اتخاذ شركاء من دون الله . وهم حين عبدوا الملائـكة إنما كانوا يعبدون الشيطان ! ذلك إلى أن عبادة الجن عرفت بين العرب ؛ وكان منهم فريق يتوجه إلى الجن بالعبادة أو الاستعانة : «بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » . . ومن هنا تجىء علاقة قصة سليمان والجن بالقضايا والموضوعات التى تعالجها السورة ، على طريقة سياقة القصص فى القرآن الـكريم .

وبينما المشهد معروض يتغير السياق من الحـكاية والوصف إلى الخطاب والمواجهة . ويوجه القول إليهم بالتأنيب والتبكيت :

« فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً » . .

لا الملائـكة يملـكون للناس شيئاً . ولاهؤلاء الذين كفروا يملك بعضهم لبعض شيئاً . والنار التى كذب بها الظالمون ، وكانوا يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، هاهم أولاء يرونها واقعاً لاشك فيه :

« ونقول للذين ظلموا : ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تـكذبون »

وبهـذا تختم الجولة مركزة على قضية البعث والحساب والجزاء كسائر الجولات فى هـذه السورة .

« وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا : مَاهٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا

كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ؛ وَقَالُوا : مَاهٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى ؛ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ : إِنْ هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ، وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ـ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ـ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ؟

« قُلْ : إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ . . أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا . . مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

« قُلْ : مَاسَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

« قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ .

« قُلْ : جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ .

« قُلْ : إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ، وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .

« وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ ، وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا : آمَنَّا بِهِ . وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ؟ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ » . .

هذا الشوط الأخير فى السورة يبدأ بالحديث عن المشركين ، ومقولاتهم عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن القرآن الذى جاء به ؛ ويذكرهم بما وقع لأمثالهم ، ويريهم مصرع الغابرين الذين أخذهم النكير فى الدنيا ، وهم كانوا أقوى منهم وأعلم وأغنى . .

ويعقب هذا عدة إيقاعات عنيفة كأنما هى مطارق متوالية . يدعوهم فى أول إيقاع منها إلى

أن يقوموا لله متجردين ثم يتفكروا غير متأثرين بالحواجز التى تمنعهم من الهدى ومن النظر الصحيح . وفى الإيقاع الثانى يدعوهم إلى التفكير فى حقيقة البواعث التى تجعل الرسول — صلى الله عليه وسلم — يلاحقهم بالدعوة ، وليس له من وراء ذلك نفع ، ولا هو يطلب على ذلك أجراً ، فما لهم يتشككون فى دعوته ويعرضون ؟ ثم تتوالى الإيقاعات : قل . قل . قل . وكل منها يهز القلب هزاً ولا يتماسك له قلب به بقية من حياة وشعور !

ويختم الشوط وتختم معه السورة بمشهد من مشاهد القيامة حافل بالحركة العنيفة ، يناسب إيقاعه تلك الإيقاعات السريعة العنيفة .

* * *

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا : ماهذا إلا إفك مفترى . وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين . وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير . وكذب الذين من قبلهم — وما بلغوا معشار ما آتيناهم — فكذبوا رسلى ، فكيف كان نكير ؟ » . .

لقد قابلوا الحق الواضح البين الذى يتلوه عليهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — برواسب غامضة من آثار الماضى ، وتقاليد لا تقوم على أساس واضح ، وليس لها قوام متماسك . ولقد أحسوا خطورة ما يواجههم به القرآن الكريم من الحق البسيط المستقيم المتماسك . أحسوا خطورته على ذلك الخليط المشوش من العقائد والعادات والتقاليد التى وجدوا عليها آباءهم فقالوا قولتهم تلك :

« ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم » . .

ولكن هذا وحده لا يكفى . فإن مجرد أنه يخالف ما كان عليه الآباء ليس مطعنا مقنعاً لجميع العقول والنفوس . ومن ثم أتبعوا الادعاء الأول بادعاء آخر يمس أمانة المبلغ ، ويرد قوله أنه جاء بما جاء به من عند الله :

« وقالوا : ما هذا إلا إفك مفترى » . .

والإفك هو الكذب والافتراء ؛ ولكنهم يزيدونه توكيداً : « ماهذا إلا إفك مفترى » . .

ذلك ليشككوا فى قيمته ابتداء ، متى أوقعوا الشك فى مصدره الإلهى .

ثم مضوا يصفون القرآن ذاته :

« وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين » . .

فهو كلام مؤثر يزلزل القلوب ، فلا يكفى أن يقولوا : إنه مفترى . فحاولوا إذن أن يعللوا وقعه القاهر فى القلوب . فقالوا : إنه سحر مبين !

فهى سلسلة من الاتهامات ، حلقة بعد حلقة ، يواجهون بها الآيات البينات كى يحولوا بينها وبين القلوب . ولا دليل لهم على دعواهم . ولكنها جملة من الأكاذيب لتضليل العامة والجماهير . أما الذين كانوا يقولون هذا القول — وهم الكبراء والسادة — فقد كانوا على يقين أنه قرآن كريم ، فوق مقدور البشر ، وفوق طاقة المتكلمين ! وقد سبق فى الظلال ماحدث به بعض هؤلاء الكبراء بعضا فى أمر محمد — صلى الله عليه وسلم — وأمر القرآن ؛ ومادبروا بينهم من كيد ليصدوا به الجماهير عن هذا القرآن الذى يغلب القلوب ويأسر النفوس ! (١)

وقد كشف القرآن أمرهم ، وهو يقرر أنهم أميون لم يؤتوا من قبل كتاباً يقيسون به الكتب ؛ ويعرفون به الوحى ؛ فيفتوا بأن ماجاءهم اليوم ليس كتاباً وليس وحياً ، وليس من عند الله . ولم يرسل إليهم من قبل رسول . فهم يهرفون إذن بما لاعلم لهم به ويدعون ماليس يعلمون :

« وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير » !

ويلمس قلوبهم بتذكيرهم بمصارع الذين كذبوا من قبل . وهم لم يؤتوا معشار ما أوتى أولئك الغابرون . من علم ، ومن مال ، ومن قوة ، ومن تعمير .. فلما كذبوا الرسل أخذهم النكير . أى الهجوم المدوى المنكر الشديد :

« وكذب الذين من قبلهم — ومابلغوا معشار ما أوتوا — فكذبوا رسلى . فكيف كان نكير ؟ » ..

ولقد كان النكير عليهم مدمراً مهلكا . وكانت قريش تعرف مصارع بعضهم فى الجزيرة . فهذا التذكير يكفى . وهذا السؤال التهكمى « فكيف كان نكير ؟ » سؤال موح يلمس قلوب المخاطبين . وهم يعرفون كيف كان ذلك النكير !

***

وهنا يدعوهم دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق ، ومعرفة الافتراء من الصدق ، وتقدير الواقع الذى يواجهونه من غير زيف ولادخل :

---

(١) كحديث الوليد ابن المغيرة وأبى سفيان ابن حرب والأخنس ابن شريق .

« قل : إنما أعظكم بواحدة . . أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا . مابصاحبكم من جنة . إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . .

إنها دعوة إلى القيام لله . بعيداً عن الهوى . بعيداً عن المصلحة . بعيداً عن ملابسات الأرض . بعيداً عن الهواتف والدوافع التى تشتجر فى القلب ، فتبعد به عن الله . بعيداً عن التأثر بالتيارات السائدة فى البيئة . والمؤثرات الشائعة فى الجماعة .

دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط ، لامع القضايا والدعاوى الرائجة ؛ ولامع العبارات المطاطة ، التى تبعد القلب والعقل من مواجهة الحقيقة فى بساطتها .

دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافى ، بعيداً عن الضجيج والخلط واللبس ؛ والرؤية المضطربة والغبش الذى يحجب صفاء الحقيقة .

وهى فى الوقت ذاته منهج فى البحث عن الحقيقة . منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشى والمؤثرات . وعلى مراقبة الله وتقواه .

وهى « واحدة » . . إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق . القيام لله . . لا لغرض ولا لهوى ولا لمصلحة ولا لنتيجة .. التجرد .. الخلوص .. ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذى يواجهه القائمون لله المتجردون .

« أن تقوموا لله . مثنى وفرادى » .. مثنى ليراجع أحدهما الآخر ، ويأخذ معه ويعطى فى غير تأثر بعقلية الجماهير التى تتبع الانفعال الطارئ ، ولا تتلبث لتتبع الحجة فى هدوء . . وفرادى مع النفس وجها لوجه فى تمحيص هادئ عميق .

« ثم تتفكروا . مابصاحبكم من جنة » . . فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة . وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده . إن هو إلا القول المحكم القوى المبين .

« إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . .

لمسة تصور العذاب الشديد وشيكا أن يقع ، وقد سبقه النذير بخطوة . لينقذ من يستمع . كالهاتف المحذر من حريق فى دار يوشك أن يلتهم من لايفر من الحريق . وهو تصوير — فوق أنه صادق — بارع موح مثير . .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبونعيم بشير ابن المهاجر ، حدثنى عبد الله ابن بريرة عن أبيه — رضى الله عنه — قال : خرج علينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوماً ، فنادى ثلاث

مرات : « أيها الناس أتدرون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال ــ صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم . فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم ، وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه . أيها الناس أتيتم . أيها الناس أتيتم . أيها الناس أتيتم » . .

وروى بهذا الإسناد قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « بعثت أنا والساعة جميعاً . إن كادت لتسبقنى » . .

ذلك هو الإيقاع الأول المؤثر الموحى . يتبعه الإيقاع الثانى :

« قل : ماسألتكم من أجرفهو لكم . إن أجرى إلاعلى الله . وهو على كل شئ شهيد » . .

دعاهم فى المرة الأولى إلى التفكر الهادئ البرئ . . مابصاحبكم من جنة . . ويدعوهم هنا أن يفكروا ويسألوا أنفسهم عما يدعوه إلى القيام بإنذارهم بين يدى عذاب شديد . مامصلحته ؟ مابواعثه ؟ ماذا يعود عليه ؟ ويأمره أن يلمس منطقهم ويوقظ وجدانهم إلى هذه الحقيقة فى صورة موحية :

« قل : ماسألتكم من أجر فهو لكم » !

خذوا أنتم الأجر الذى طلبته منكم ! وهو أسلوب فيه تهكم . وفيه توجيه . وفيه تنبيه .

« إن أجرى إلا على الله » . .

هو الذى كلفنى . وهو الذى يأجرنى . وأجره هو الذى أتطلع إليه . ومن يتطلع إلى ماعند الله فكل ماعند الناس هين عنده هزيل زهيد لايستحق التفكير .

« وهو على كل شىء شهيد » . .

يعلم ويرى ولايخفى عليه شىء . وهو علىّ شهيد . فيما أفعل وفيما أنوى وفيما أقول .

ويشتد الإيقاع الثالث وتقصر خطاه :

« قل : إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب » . .

وهذا الذى جئتكم به هوالحق . الحق القوى الذى يقذف به الله . فمن ذا يقف للحق الذى يقذف به الله ؟ إنه تعبيرمصور مجسم متحرك . وكأنما الحق قذيفة تصدع وتخرق وتنفذ ولا يقف لها أحد فى طريق . . يقذف بها الله « علام الغيوب » فهو يقذف بها عن علم ، ويوجهها على علم ، ولايخفى عليه هدف ، ولا تغيب عنه غاية ، ولا يقف للحق الذى يقذف به معترض ولاسد يعوق . فالطريق أمامه مكشوف ليس فيه مستور !

ويتلوه الإيقاع الرابع فى مثل عنفه وسرعته :

« قل : جاء الحق ، ومايبدىء الباطل ومايعيد » . .

جاء هـذا الحق فى صورة من صوره ، فى الرسالة ، وفى قرآنها ، وفى منهجها المستقيم . قل : جاء الحق . أعلن هذا الإعلان . وقرر هذا الحدث . واصدع بهـذا النبأ . جاء الحق . جاء بقوته . جاء بدفعته . جاء باستعلائه وسيطرته « ومايبدىء الباطل ومايعيد » . . فقـد انتهى أمره . وماعادت له حياة ، وماعاد له مجال ، وقد تقرر مصيره وعرف أنه إلى زواله .

إنه الإيقاع المزلزل ، الذى يشعر من يسمعه أن القضاء المبرم قد قضى ، وأنه لم يعد هناك مجال لشىء آخر يقال .

وإنه لـكذلك . فمنذ جاء القرآن استقر منهج الحق واتضح . ولم يعد الباطل إلا ممـاحكة ومماحلة أمام الحق الواضح الحاسم الجازم . ومهما يقع من غلبة مادية للباطل فى بعض الأحوال والظروف ، إلا أنها ليست غلبة على الحق . إنمـا هى غلبة على المنتمين إلى الحق . غلبة الناس لا المبادىء . وهذه موقوتة ثم تزول . أما الحق فواضح بين صريح .

والإيقاع الأخير :

« قل : إن ضللت فإنمـا أضل على نفسى . وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى . إنه سميع قريب » . . .

فلا عليكم إذن إن ضللت . فإنمـا أضل على نفسى . وإن كنت مهتديا فإن الله هو الذى هدانى بوحيه ، لا أملك لنفسى منه شيئاً إلا بإذنه . وأنا تحت مشيئته أسير فضله .

« إنه سميع قريب » . .

وهكذا كانوا يجدون الله . هكذا كانوا يجدون صفاته هـذه فى نفوسهم . كانوا يجدونها رطبة بالحياة الحقيقية . كانوا يحسون أن الله يسمع لهم وهو قريب منهم . وأنه معنى بأمرهم عناية مباشرة ؛ وأن شكواهم ونجواهم تصل إليه بلا واسطة . وأنه لايهملها ولايكلها إلى سواه . ومن ثم كانوا يعيشون فى أنس بربهم . فى كنفه . فى جواره . فى عطفه . فى رعايته . ويجدون هذا كله فى نفوسهم حياً ، واقعاً ، بسيطاً ، وليس معنى ولا فـكرة ولا مجرد تمثيل وتقريب .

« إنه سميع قريب » . . .

***

وأخيراً يجىء الختام فى مشهد من مشاهد القيامة حافل بالحركة العنيفة المترددة بين الدنيا

والأخرى . كأنما هو مجال واحد ، وهم كرة يتقاذفها السياق فى المشهد السريع العنيف :

« ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا : آمنا به . وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد . وحيل بينهم وبين مايشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا فى شك مريب » ..

« ولو ترى » .. فالمشهد معروض للأنظار . « إذ فزعوا » .. من الهول الذى فوجئوا به . وكأنما أرادوا الإفلات « فلافوت » ولاإفلات « وأخذوا من مكان قريب » .. ولم يبعدوا فى محاولتهم البائسة وحركتهم المذهولة .

« وقالوا : آمنا به » .. الآن بعد فوات الأوان .. « وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ » وكيف يتناولون الإيمان من مكانهم هذا . ومكان الإيمان بعيد عنهم فقد كان ذلك فى الدنيا ، فضيعوه !

« وقد كفروا به من قبل » .. فانتهى الأمر ، ولم يعد لهم أن يحاولوه اليوم !

« ويقذفون بالغيب من مكان بعيد » .. ذلك حين أنكروا هذا اليوم ، وهوغيب كان ، فلم يكن لهم على إنكاره من دليل ، إنما كانوا يقذفون بالغيب من مكان بعيد . واليوم يحاولون تناول الإيمان به من مكان كذلك بعيد !

« وحيل بينهم وبين مايشتهون » .. من الإيمان فى غير موعده ، والإفلات من العذاب الذى يشهدونه ، والنجاة من الخطر الذى يواجهونه . « كما فعل بأشياعهم من قبل » .. ممن أخذهم الله ، فطلبوا النجاة بعد نفاذ الأمر ، وبعد أن لم يعد منه مفر .

« إنهم كانوا فى شك مريب » .. فهاهو ذا اليقين بعد الشك المريب !

***

وهكذا تختم السورة فى هذا الإيقاع السريع العنيف الشديد . وتختم بمشهد من مشاهد القيامة ؛ يثبت القضية التى عليها التركيز والتوكيد فى السورة . كما مضى فى نهاية كل شوط فيها وفى ثناياها . وقد بدأت السورة بهذه القضية وختمت بها هذا الختام العنيف .

# سورة فاطر مكية
## وآياتها ٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ » . .

هذه السورة المكية نسق خاص فى موضوعها وفى سياقها . أقرب ما تكون إلى نسق سورة الرعد . فهى تمضى فى إيقاعات تتوالى على القلب البشرى من بدئها إلى نهايتها . إيقاعات موحية مؤثرة تهزه هزا ، وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود ، وروعة هذا الكون ؛ وليتدبر آيات الله المبثوثة فى تضاعيفه ، المتناثرة فى صفحاته ؛ وليتذكر آلاء الله ، ويشعر برحمته ورعايته ؛ وليتصور مصارع الغابرين فى الأرض ومشاهدهم يوم القيامة ؛ وليخشع ويعنو وهو يواجه بدائع صنع الله ، وآثار يده فى أطواء الكون ، وفى أغوار النفس ، وفى حياة البشر ، وفى أحداث التاريخ . وهو يرى ويلمس فى تلك البدائع وهذه الآثار وحدة الحق ووحدة الناموس ، ووحدة اليد الصانعة المبدعة القوية القديرة . . . ذلك كله فى أسلوب وفى إيقاع لا يتماسك له قلب يحس ويدرك ، ويتأثر تأثر الأحياء .

والسورة وحدة متماسكة متوالية الحلقات متتالية الإيقاعات . يصعب تقسيمها إلى فصول متميزة الموضوعات . فهى كلها موضوع واحد . كلها إيقاعات على أوتار القلب البشرى ، تستمد من ينابيع الكون والنفس والحياة والتاريخ والبعث . فتأخذ على النفس أقطارها وتهتف بالقلب من كل مطلع ، إلى الإيمان والخشوع والإذعان .

والسمة البارزة الملحوظة فى هذه الإيقاعات هى تجميع الخيوط كلها فى يد القدرة المبدعة . وإظهار هذه اليد تحرك الخيوط كلها وتجمعها ؛ وتقبضها وتبسطها ، وتشدها وترخيها . بلا معقب ولاشريك ولاظهير .

ومنذ ابتداء السورة نلمح هذه السمة البارزة ، وتطرد إلى ختامها . .

هذا الكون الهائل نلمح اليد القادرة القاهرة تبرزه إلى الوجود وفق ماتريد : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع . يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير » . .

وهذه القبضة القوية تنفرج فترسل بالرحمة تتدفق وتفيض ، وتنقبض فتغلق ينابيعها وتغيض . بلا معقب ولاشريك :

« مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » . .

والهدى والضلال رحمة تتدفق أو تغيض : « فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء » . . « إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور . إن أنت إلا نذير » . .

وهذه اليد تصنع الحياة الأولى وتنشر الموتى فى الحياة الآخرة : « والله الذى أرسل الرياح ، فتثير سحاباً ، فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها . كذلك النشور » . .

والعزة كلها لله ومنه وحده تستمد : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » . .

والخلق والتكوين والنسل والأجل خيوطها كلها فى تلك اليد لاتند عنها : « والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجاً . وما تحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ، ولاينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير » :

وفى تلك القبضة تتجمع مقاليد السماوات والأرض وحركات الكواكب والأفلاك : « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . ذلكم

الله ربكم له الملك . والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير » . .

ويد الله المبدعة تعمل فى هـذا الـكون بطريقتها المعلمة ، وتصبغ وتلون فى الجماد والنبات والحيوان والإنسان : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك » .

وهذه اليد تنقل خطى البشر ، وتورث الجيل الجيل : « ثم أورثنا الـكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » .. « هو الذى جعلـكم خلائف فى الأرض » ..

وهى تمسك بهذا الـكون الهائل تحفظه من الزوال . « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » ..

وهى القابضة على أزمة الأمور لايعجزها شىء على الإطلاق : « وما كان الله ليعجزه من شىء فى السماوات ولا فى الأرض » ..

وهو « على كل شىء قدير » .. وهو « العزيز الحـكيم » .. « وإلى الله ترجع الأمور » وهو « عليم بما يصنعون » .. « وله الملك » .. وهو « الغنى الحميد » .. « وإلى الله المصير » .. وهو « عزيز غفور » .. وهو « غفور شكور » .. وإنه بعباده « لخبير بصـير » .. وهو « عـالم غيب السماوات والأرض » .. وهو « عليم بذات الصـدور » .. وكان « حليما غفورا » .. وكان « عليما قديرا » .. وكان « بعباده بصيرا » . .

ومن تلك الآيات وهذه التعقيبات يرتسم جو السورة ، والسمة الغالبة عليها ، والظل الذى تلقيه فى النفس على وجه العموم .

ونظرا لطبيعة السورة فقد اخترنا تقسيمها إلى ستة مقاطع متجانسة المعانى لتيسير تناولها . وإلا فهى شوط واحد متصل الإيقاعات والحلقات من بدئها إلى نهايتها ...

* * *

« الحمد لله فاطر السماوات والأرض ، جاعل الملائـكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق مايشاء ، إن الله على كل شىء قدير » . .

تبدأ السورة بتقديم الحمد لله . فهى سورة قوامها توجيه القلب إلى الله ، وإيقاظه لرؤية

آلائه ، واستشعار رحمتـه وفضله ، وتمـلى بدائع صنعه فى خلقه ، وامتلاء الحس بهـذه البدائع ، وفيضه بالتسبيح والحمد والابتهال :

« الحمد لله » . .

ويتلو حمد الله ذكر صفته الدالة على الخلق والإبداع :

« فاطر السماوات والأرض » . .

فهو منشئ هـذه الخلائق الهائلة التى نرى بعضها من فوقنا ومن تحتنا حيث كنا ، والتى لانعرف إلا القليل عن أصغرها وأقربها إلينا . . أمنا الأرض . . والتى ينتظمها ناموس واحد يحفظها فى تناسق وتوافق ، على ما بينهـا من أبعاد هائلة لايتصورها خيالنا البشرى إلا بمشقة عظيمة ؛ والتى تحوى – مع ضخامتها وتباعد أفلاكها ومداراتها – من أسرار التناسب فيما بينها، مالو اختلت فيه نسبة صغيرة لتحطمت كلها وتناثرت بددا .

وإننا لنمر على مثل هـذه الإشارة فى القرآن الـكريم إلى خلق السماوات والأرض ، دون أن نقف أمامها طويلا لنتدبر مدلولها الهائل ؛ كما نمر على مشاهد السماوات والأرض ذاتها بمثل هـذه البلادة ، لانقف أمامها إلا قليلا . ذلك أن حسنا قد تبلد ، فلم تعد تلك المشاهد توقع على أوتاره تلك الإيقاعات الموقظة الموحية ، التى توقعها على القلوب الموصولة بذكر الله ، المتيقظة لآثار يده المبدعة فى هـذا الوجود . وذلك أن الألفة قد أفقدتنا الوهلة والروعة التى يحسها القلب وهو ينظر إلى مثل هذه البدائع للمرة الأولى .

ولايحتاج القلب المفتوح الواعى الموصول بالله إلى عـلم دقيق بمواقع النجوم فى السماء ، وأحجامها ونسبها ، ونسب الفضاء حولها ، وطرق سيرها فى مداراتها ، وعلاقة بعضها ببعض فى أحجامها وأوضاعها وحركاتها ... لايحتاج القلب المفتوح الواعى الموصول بالله إلى علم دقيق بهذا كله ليستشعر الروعة والرهبة أمام هذا الخلق الهائل الجميل العجيب . فحسبه إيقاع هـذه المشاهد بذاتها على أوتاره . حسبه مشهد النجوم المتناثرة فى الليلة الظلماء . حسبه مشهد النور الفائض فى الليلة القمراء . حسبه الفجر المشقشق بالنـور الموحى بالتنفس والانطلاق . حسبه الغروب الزاحف بالظلام الموحى بالوداع والانتهاء .. بل حسبه هذه الأرض ومافيها من مشاهد لاتنتهى ولايستقصيها سائح يقضى عمره فى السياحة والتطلع والتملى .. بل حسبه زهرة واحدة لاينتهى التأمل فى ألوانها وأصباغها وتشكيلها وتنسيقها . . .

والقرآن يشير إشاراته الموحية لتدبر هـذه الخلائق . . الجليل منها والدقيق . . وحسبه

القلب واحدة منها لإدراك عظمة فاطرها ، والتوجه إليه بالتسبيح والحمد والابتهال . .

« الحمد لله فاطر السماوات والأرض » .. « جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع » .

والحديث فى هذه السورة يتردد حول الرسل والوحى وما أنزل الله من الحق .. والملائكة هم رسل الله بالوحى إلى من يختاره من عباده فى الأرض . وهذه الرسالة هى أعظم شىء وأجله . ومن ثم يذكر الله الملائكة بصفتهم رسلا عقب ذكره لخلق السماوات والأرض . وهم صلة ما بين السماء والأرض . وهم يقومون بين فاطر السماوات والأرض ، وأنبيائه ورسله إلى الخلق بأعظم وظيفة وأجلها .

ولأول مرة ــ فيما مر بنا من القرآن فى هذه الظلال ــ نجد وصفا للملائكة يختص بهيئتهم : وقد ورد وصفهم من قبل من ناحيــة طبيعتهم ووظيفتهم ، مثل قوله تعالى : « ومن عنـده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون [1] » .. وقوله : « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون [2] » .. أما هنا فنجد شيئاً يختص بتكوينهم الخلقى : « أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع » . . وهو وصف لا يمثلهم للتصور . لأننا لا نعرف كيف هم ولا كيف أجنحتهم هــذه . ولا نملك إلا الوقوف عند هــذا الوصف ، دون تصور معين له . فــكل تصور قد يخطىء . ولم يرد إلينا وصف محدد للشكل والهيئة من طريق معتمد . والذى ورد فى القرآن هو هذا ؛ وهو قوله تعالى فى وصف جهنم : « عليهــا ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون [3] » . . وهو كذلك لا يحدد شكلا ولا هيئة . والذى ورد فى الأثر : « أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ رأى جبريل فى صورته مرتين » وفى رواية : «له ست مئة جناح[4]» . . وهو كذلك لا يعين شكلا ولا هيئة . فالأمر إذن مطلق . والعلم لله وحده فى هذه الغيبيات .

وبمناسبة ذكر الأجنحة مثنى وثلاث ورباع . حيث لا يعرف الإنسان إلا شكل الجناحــين للطائر . يذكر أن الله « يزيد فى الخلق ما يشاء » . . فيقرر طلاقة المشيئة ، وعدم تقيدها بشكل من أشكال الخلق . . وفيما نشهده نحن ونعلمه أشكال لا تحصى من الخلق . ووراء ما نعلم أكثر وأكثر . . « إن الله على كل شىء قدير » . . وهذا التعقيب أوسع من سابقه وأشمل .

---

(١) سورة الأنبياء . آية : ١٩ ــ ٢٠

(٢) سورة الأعراف . آية : ٢٠٦

(٣) سورة التحريم . آية : ٦

(٤) متفق عليه من رواية ابن مسعود .

فلاتبقى وراءه صورة لايتناولها مدلوله ، من صور الخلق والإنشاء والتغيير والتبديل .

* * *

« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » . .

في هذه الآية الثانية من السورة صورة من صور قدرة الله التي ختم بها الآية الأولى . وحين تستقر هذه الصورة في قلب بشرى يتم فيه تحول كامل في تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه في هذه الحياة جميعاً .

إنها تقطعه عن شبهة كل قوة في السماوات والأرض وتصله بقوة الله . وتيئسه من مظنة كل رحمة في السماوات والأرض وتصله برحمة الله . وتوصد أمامه كل باب في السماوات والأرض وتفتح أمامه باب الله . وتغلق في وجهه كل طريق في السماوات والأرض وتشرع له طريقه إلى الله .

ورحمة الله تتمثل في مظاهر لايحصيها العد ؛ ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه ، وتكريمه بما كرمه ؛ وفيما سخر له من حوله ومن فوقه ومن تحته ؛ وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لايعلمه وهو كثير .

ورحمة الله تتمثل في الممنوع تمثلها في الممنوح . ويجدها من يفتحها الله له في كل شيء ، وفي كل وضع ، وفي كل حال ، وفي كل مكان .. يجدها في نفسه ، وفي مشاعره ؛ ويجدها فيما حوله ، وحيثما كان ، وكيفما كان . ولو فقد كل شيء مما يعد الناس فقده هو الحرمان .. ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء ، وفي كل وضع ، وفي كل حالة ، وفي كل مكان . ولو وجد كل شيء مما يعده الناس علامة الوجدان والرضوان !

وما من نعمة ــ يمسك الله معها رحمته ــ حتى تنقلب هي بذاتها نقمة . وما من محنة ــ تحفها رحمة الله ــ حتى تكون هي بذاتها نعمة .. ينام الإنسان على الشوك ــ مع رحمة الله ــ فإذا هو مهاد . وينام على الحرير ــ وقد أمسكت عنه ــ فإذا هو شوك القتاد . ويعالج أعسر الأمور ــ برحمة الله ــ فإذا هي هوادة ويسر . ويعالج أيسر الأمور ــ وقد تخلت رحمة الله ــ فإذا هي مشقة وعسر . ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام . ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار !

ولا ضيق مع رحمة الله . إنما الضيق في إمساكها دون سواه . لاضيق ولو كان صاحبها

فى غياهب السجن ، أوفى جحيم العذاب أوفى شعاب الهلاك . ولا وسعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان فى أعطاف النعيم ، وفى مراتع الرخاء . فمن داخل النفس برحمة الله تتفجر ينابيع السعادة والرضى والطمأنينـة . ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة !

هـذا الباب وحـده يفتح وتغلق جميع الأبواب ، وتوصد جميع النوافذ ، وتسد جميع المسالك . . فلا عليك . فهو الفرج والفسحة واليسر والرخاء . . وهذا الباب وحـده يغلق وتفتح جميـع الأبواب والنوافذ والمسالك فما هو بنافع . وهو الضيق والكرب والشـدة والقلق والعناء !

هذا الفيض يفتح ، ثم يضيق الرزق . ويضيق السكن . ويضيق العيش ، وتخشن الحياة ، ويشوك المضجع . . فلا عليك . فهو الرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة . وهذا الفيض يمسك . ثم يفيض الرزق ويقبل كل شئ . فلا جدوى . وإنما هو الضنك والحرج والشقاوة والبلاء !

المـال والولد ، والصحة والقوة ، والجاه والسلطان . . تصبح مصادر قلق وتعب ونـكد وجهد إذا أمسكت عنها رحمة الله . فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السكن والراحة والسعادة والاطمئنان .

يبسط الله الرزق — مع رحمته — فإذا هو متاع طيب ورخاء ؛ وإذا هو رغد فى الدنيا وزاد إلى الآخرة . ويمسك رحمته ، فإذا هو مثار قلق وخوف ، وإذا هو مثار حسد وبغض ، وقد يكون معه الحرمان ببخل أو مرض ، وقد يكون معه التلف بإفراط أو استهتار .

ويمنح الله الذرية — مع رحمته — فإذا هى زينة فى الحياة ومصدر فرح واستمتاع ، ومضاعفة للأجر فى الآخرة بالخلف الصالح الذى يذكر الله . ويمسك رحمتـه فإذا الذرية بلاء ونـكد وعنت وشقاء ، وسهر بالليل وتعب بالنهار !

ويهب الله الصحة والقوة — مع رحمتـه — فإذا هى نعمة وحياة طيبة ، والتذاذ بالحياة . ويمسك نعمته فإذا الصحة والقوة بلاء يسلطه الله على الصحيح القوى ، فينفق الصحة والقوة فيما يحطم الجسم ويفسد الروح ، ويدخر السوء ليوم الحساب !

ويعطى الله السلطان والجاه — مع رحمته — فإذا هى أداة إصلاح ، ومصدر أمن ، ووسيلة لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر . ويمسك الله رحمته فإذا الجاه والسلطان مصدر قلق على فوتهما ، ومصدر طغيان وبغى بهما ، ومثار حقد وموجدة على صاحبهما لا يقر له معهما

قرار ، ولا يستمتع بجاه ولا سلطان ، ويدخر بهما للآخرة رصيداً ضخماً من النار !

والعلم الغزير . والعمر الطويل . والمقام الطيب . كلها تتغير وتتبدل من حال إلى حال . . مع الإمساك ومع الإرسال . . وقليل من المعرفة يثمر وينفع ، وقليل من العمر يبارك الله فيه . وزهيد من المتاع يجعل الله فيه السعادة .

والجماعات كالآحاد . والأمم كالأفراد . فى كل أمر وفى كل وضع ، وفى كل حال . . ولا يصعب القياس على هذه الأمثال !

ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله ! فرحمة الله تضمك وتغمرك وتفيض عليك . ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة . ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة . وثقتك بها وتوقعها فى كل أمر هو الرحمة . والعذاب هو العذاب فى احتجابك عنها أو يأسك منها أو شكك فيها . وهو عذاب لا يصبه الله على مؤمن أبداً . « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

ورحمة الله لا تعز على طالب فى أى مكان ولا فى أى حال . وجدها إبراهيم — عليه السلام — فى النار . ووجدها يوسف — عليه السلام — فى الجب كما وجدها فى السجن . ووجدها يونس — عليه السلام — فى بطن الحوت فى ظلمات ثلاث . ووجدها موسى — عليه السلام — فى اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة ، كما وجدها فى قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه . ووجدها أصحاب الكهف فى الكهف حين افتقدوها فى القصور والدور . فقال بعضهم لبعض : « فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته » . ووجدها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وصاحبه فى الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثار . . ووجدها كل من آوى إليها يأساً من كل ماسواها . منقطعاً عن كل شبهة فى قوة ، وعن كل مظنة فى رحمة ، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب .

ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها . ومتى أمسكها فلا مرسل لها . ومن ثم فلا مخافة من أحد . ولا رجاء فى أحد . ولا مخافة من شىء ، ولا رجاء فى شىء . ولا خوف من فوت وسيلة ، ولا رجاء مع الوسيلة . إنما هى مشيئة الله . مايفتح الله فلا ممسك . ومايمسك الله فلا مرسل . والأمر مباشرة إلى الله . . « وهو العزيز الحكيم » . . يقدر بلا معقب على الإرسال والإمساك . ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك .

« مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » . .

ومابين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه ، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه فى طاعة وفى رجاء وفى ثقة وفى استسلام .

« ومايمسك فلا مرسل له من بعده » .

فلا رجاء فى أحد من خلقه ، ولاخوف لأحد من خلقه . فما أحد بمرسل من رحمة الله ما أمسكه الله .

أية طمأنينة ؟ وأى قرار ؟ وأى وضوح فى التصورات والمشاعر والقيم والموازين تقره هذه الآية فى الضمير ؟ !

آية واحدة ترسم للحياة صورة جديدة ؛ وتنشئ فى الشعور قيما لهذه الحياة ثابتة ؛ وموازين لاتهتز ولا تتأرجح ولا تتأثر بالمؤثرات كلهــا . ذهبت أم جاءت . كبرت أم صغرت . جلت أم هانت . كان مصدرها الناس أو الأحداث أو الأشياء !

صورة واحــدة لواستقرت فى قلب إنسان لصمد كالطود للأحداث والأشياء والأشخاص والقوى والقيم والاعتبارات . ولوتضافر عليها الإنس والجن . وهم لايفتحون رحمــة الله حين يمسكها ، ولايمسكونها حين يفتحها . . « وهو العزيز الحكيم » . .

وهكذا أنشأ القرآن بمثل هــذه الآية وهذه الصورة تلك الفئة العجيبة من البشر فى صدر الإسلام . الفئة التى صنعت على عين الله بقرآنه هذا لتكون أداة من أدوات القدرة ، تنشئ فى الأرض ماشاء الله أن ينشئ من عقيدة وتصور ، وقيم وموازين ، ونظم وأوضاع . وتقر فى الأرض ماشاء الله أن يقر من نماذج الحياة الواقعة التى تبدو لنــا اليوم كالأساطير والأحلام . الفئة التى كانت قدراً من قدر الله يسلطه على من يشاء فى الأرض فيمحو ويثبت فى واقع الحياة والناس ماشاء الله من محو ومن إثبات . ذلك أنها لم تكن تتعامل مع ألفاظ هــذا القرآن ، ولامع المعانى الجميــلة التى تصورها . . وكفى . . ولكنها كانت تتعامل مع الحقيقة التى تمثلها آيات القرآن ، وتعيش فى واقعها بها ، ولها . .

وما يزال هــذا القرآن بين أيدى الناس ، قادراً على أن ينشئ بآياته تلك أفرادا وفئات تمحو وتثبت فى الأرض — بإذن الله — مايشاء الله .. ذلك حين تستقر هذه الصور فى القلوب ، فتأخذها جداً ، وتتمثلها حقاً . حقاً تحسه ، كأنها تلمسه بالأيدى وتراه بالأبصار . .

***

ويبقى أن أتوجه أنا بالحمد لله على رحمة منه خاصة عرفتها منه فى هذه الآية . .

لقد واجهتنى هــذه الآية فى هذه اللحظة وأنا فى عسر وجهــد وضيق ومشقة . واجهتنى فى لحظة جفاف روحى ، وشقاء نفسى ، وضيق بضائقة ، وعسر من مشقة .. واجهتنى فى ذات

اللحظة . ويسر الله لى أن أطلع منها على حقيقتها . وأن تسكب حقيقتها فى روحى ؛ كأنما هى رحيق أرشفه وأحس سريانه ودبيبه فى كيانى . حقيقة أذوقها لامعنى أدركه . فكانت رحمة بذاتها . تقدم نفسها لى تفسيراً واقعياً لحقيقة الآية التى تفتحت لى تفتحها هذا . وقد قرأتها من قبل كثيراً ، ومررت بها من قبل كثيراً . ولكنها اللحظة تسكب رحيقها وتحقق معناها ، وتنزل بحقيقتها المجردة ، وتقول : هأنذا . . نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها . فانظر كيف تكون !

إنه لم يتغير شىء مما حولى . ولكن لقد تغير كل شىء فى حسى ! إنها نعمة ضخمة أن يتفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود ، كالحقيقة الكبرى التى تتضمنها هذه الآية . نعمة يتذوقها الإنسان ويعيشها ؛ ولكنه قلما يقدر على تصويرها ، أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة . وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها . وتم هذا كله فى أشد لحظات الضيق والجفاف التى مرت بى فى حياتى . وهأنذا أجد الفرج والفرح والرى والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق . وأنا فى مكانى ! إنها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها فى آية من آياته . آية من القرآن تفتح كوة من النور . وتفجر ينبوعاً من الرحمة . وتشق طريقاً ممهوداً إلى الرضى والثقة والطمأنينة والراحة فى ومضة عين وفى نبضة قلب وفى خفقة جنان . اللهم حمداً لك. اللهم منزل هذا القرآن . هدى ورحمة للمؤمنين ...

***

ونعود بعد تسجيل هذه الومضة إلى سياق السورة . . فنجده يؤكد فى الآية الثالثة إيحاء الآيتين الأولى والثانية ؛ فيذكر الناس بنعمة الله عليهم ؛ وهو وحده الخالق وهو وحده الرازق ، الذى لاإله إلاهو ؛ ويعجب كيف يصرفون عن هذا الحق الواضح المبين :

« يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم . هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لاإله إلا هو . فأنى تؤفكون ؟ » ..

ونعمة الله على الناس لاتتطلب إلا مجرد الذكر ؛ فإذا هى واضحة بينة ، يرونها ويحسونها ويلمسونها ، ولكنهم ينسون فلا يذكرون .

وحولهم السماء والأرض تفيضان عليهم بالنعم ، وتفيضان عليهم بالرزق ؛ وفى كل خطوة ، وفى كل لحظة فيض ينسكب من خيرات الله ونعمه من السماء والأرض . يفيضها الخالق على خلقه . فهل من خالق غيره يرزقهم بما فى أيديهم من هذا الفيض العميم ؟ إنهم لايملكون

أن يقولوا هـذا ، وما كانوا يدعونه وهم فى أغلظ شركهم وأضله . فإذا لم يكن هناك خالق رازق غير الله ، فما لهم لايذكرون ولايشكرون ؟ ومالهم ينصرفون عن حمد الله والتوجه إليه وحده بالحمد والابتهال ؟ إنه « لاإله إلا هو » فـكيف يصرفون عن الإيمـان بهذا الحق الذى لامراء فيه . . « فأنى تؤفـكون ؟ » . . وإنه لعجيب أن ينصرف منصرف عن مثل هـذا الحق ، الذى يواجههم به مابين أيديهم من الرزق . وإنه لعجيب أن ينصرف عن حمـد الله وشكره من لايجد مفراً من الاعتراف بذلك الحق المبين !

***

هذه الإيقاعات الثلاثة القوية العميقة هى المقطع الأول فى السورة . وفى كل منها صورة تخلق الإنسان خلقاً جديداً حـين تستقر فى ضميره على حقيقتها العميقة . وهى فى مجموعها متكاملة متناسقة فى شتى الاتجاهات . .

« وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ * الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ؟ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » . .

انتهى المقطع الأول من السورة بتلك الإيقاعات الثلاثة العميقة ، بتلك الحقائق الـكبيرة الأصيلة : حقيقـة وحدانية الخالق المبدع . وحقيقة الاختصاص بالرحمـة . وحقيقة الانفراد بالرزق .

وفى المقطع الثانى يتجه أولا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالتسلية والتسرية عن

تكذيبهم له ، ويرجع الأمر كله إلى الله . ويتجه ثانيا إلى الناس يهتف بهم : إن وعد الله حق ، ويحذرهم لعب الشيطان بهم ليخدعهم عن تلك الحقائق الكبرى ، ويذهب بهم إلى السعير — وهو عدوهم الأصيل — ويكشف لهم عن جزاء المؤمنين وجزاء المخدوعين بالعدو الأصيل ! ويتجه أخيرا إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — ألا يأسى عليهم وتذهب نفسه حسرات فإن الهدى والضلال بيد الله . والله عليم بما يصنعون .

* * *

يخاطب الرسول — صلى الله عليه وسلم — :

« وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ، وإلى الله ترجع الأمور » ..

تلك هي الحقائق الكبرى واضحة بارزة ؛ فإن يكذبوك فلا عليك من التكذيب ، فلست بدعا من الرسل : « فقد كذبت رسل من قبلك » والأمر كله لله ، وإليه ترجع الأمور ، وما التبليغ والتكذيب إلا وسائل وأسباب ، والعواقب متروكة لله وحده ، يدبر أمرها كيف يريد .

ويهتف بالناس :

« يا أيها الناس إن وعد الله حق . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولايغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » ..

إن وعد الله حق .. إنه آت لاريب فيه . إنه واقع لايتخلف . إنه حق والحق لابد أن يقع ، والحق لايضيع ولايبطل ولايتبدد ولا يحيد . ولكن الحياة الدنيا تغر وتخدع . « فلا تغرنكم الحياة الدنيا » . ولكن الشيطان يغر ويخدع فلا تمكنوه من أنفسكم « ولايغرنكم بالله الغرور » . والشيطان قد أعلن عداءه لكم وإصراره على عدائكم « فاتخذوه عدوا » لاتركنوا إليه ، ولا تتخذوه ناصحاً لكم ، ولاتتبعوا خطاه ، فالعدو لايتبع خطى عدوه وهو يعقل ! وهو لايدعوكم إلى خير ، ولايتهى بكم إلى نجاة : « إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » ! فهل من عاقل يجيب دعوة الداعي إلى عذاب السعير ؟ !

إنها لمسة وجدانية صادقة . فحين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان ، فإنه يتحفز بكل قواه وبكل يقظته وبغريزة الدفاع عن النفس وحماية الذات . يتحفز لدفع الغواية والإغراء ؛ ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه ، ويتوجس من كل هاجسة ، ويسرع ليعرضها على ميزان الله الذى أقامه له ليتبين ، فلعلها خدعة مستترة من عدوه القديم !

وهذه هي الحالة الوجدانية التي يريد القرآن أن ينشئها في الضمير . حالة التوفز والتحفز لدفع وسوسة الشيطان بالغواية ؛ كما يتوفز الإنسان ويتحفز لكل بادرة من عدوه وكل حركة خفية ! حالة التعبئة الشعورية ضد الشر ودواعيه ، وضد هواتفه المستسرة في النفس ، وأسبابه الظاهرة للعيان . حالة الاستعداد الدائم للمعركة التي لا تهدأ لحظة ولا تضع أوزارها في هذه الأرض أبدا .

ثم يدعم هذه التعبئة وهذا الحذر وهذا التوفز ببيان عاقبة الكافرين الذين لبوا دعوة الشيطان ، وحالة المؤمنين الذين طاردوه :

« الذين كفروا لهم عذاب شديد . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير » . .

* * *

ويعقب على هذا بتصوير طبيعة الغواية ، وحقيقة عمل الشيطان ، والباب الذي يفتح فيجيء منه الشر كله ؛ ويمتد منه طريق الضلال الذي لا يرجع منه سالك متى أبعدت فيه خطاه :

« أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ... ؟ » . .

هذا هو مفتاح الشر كله . . أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسنا . أن يعجب بنفسه وبكل مايصدر عنها . ألا يفتش في عمله ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه ، لأنه واثق من أنه لا يخطيء ! متأكد أنه دائما على صواب ! معجب بكل مايصدر منه ! مفتون بكل مايتعلق بذاته . لا يخطر على باله أن يراجع نفسه في شيء ، ولا أن يحاسبها على أمر . وبطبيعة الحال لايطيق أن يراجعه أحد في عمل يعمله أوفي رأي يراه . لأنه حسن في عين نفسه . مزين لنفسه وحسه . لامجال فيه للنقد ، ولاموضع فيه للنقصان !

هذا هو البلاء الذي يصبه الشيطان على إنسان ؛ وهذا هو القود الذي يقوده منه إلى الضلال . فإلى البوار !

إن الذي يكتب الله له الهدى والخير يضع في قلبه الحساسية والحذر والتلفت والحساب . فلا يأمن مكر الله . ولا يأمن تقلب القلب . ولا يأمن الخطأ والزلل . ولا يأمن النقص والعجز . فهو دائم التفتيش في عمله . دائم الحساب لنفسه . دائم الحذر من الشيطان . دائم التطلع لعون الله .

وهذا هو مفرق الطريق بين الهدى والضلال ، وبين الفلاح والبوار .

إنها حقيقة نفسية دقيقة عميقة يصورها القرآن فى ألفاظ معدودة :

« أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » . .

إنه نموذج الضال الهالك البائر الصائر إلى شر مصير . ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين ـ هو هذا الغرور . هو هذا الستار الذى يعمى قلبه وعينه فلا يرى مخاطر الطريق . ولا يحسن عملا لأنه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء . ولا يصلح خطأ لأنه واثق أنه لا يخطئ ! ولا يصلح فاسدا لأنه مستيقن أنه لا يفسد ! ولا يقف عند حد لأنه يحسب أن كل خطوة من خطواته إصلاح !

إنه باب الشر . ونافذة السوء . ومفتاح الضلال الأخير . .

ويدع السؤال بلا جواب . . « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ؟ » . . ليشمل كل جواب . كأن يقال : أفهذا يرجى له صلاح ومتاب ؟ أفهذا كمن يحاسب نفسه ويراقب الله ؟ أفهذا يستوى مع المتواضعين الأتقياء ؟ ... إلى آخر صور الإجابة على مثل هذا السؤال . وهو أسلوب كثير التردد فى القرآن .

وتجيب الآية بأحد هذه الأجوبة من بعيد :

« فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » . .

وكأنما يقول : إن مثل هذا قد كتب الله عليه الضلالة ؛ مستحقاً لها بما زين له الشيطان من سوء عمله ؛ وبما فتح عليه هذا الباب الذى لا يعود منه ضال !

فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ؛ بما تقتضيه طبيعة الضلال فى ذلك وطبيعة الهدى فى هذا . طبيعة الضلال رؤية العمل حسنا وهو سوء . وطبيعة الهدى بالتفتيش والحذر والمحاسبة والتقوى . . وهو مفرق الطريق الحاسم بين الهدى والضلال .

ومادام الأمر كذلك « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » . .

إن هذا الشأن . شأن الهدى والضلال . ليس من أمر بشر . ولو كان هو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما هو من أمر الله . والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمان . وهو مقلب القلوب والأبصار . . والله ـ سبحانه ـ يعزى رسوله ويسليه بتقرير هذه الحقيقة له . حتى يستقر قلبه الكبير الرحيم المشفق على قومه مما يراه من ضلالهم ، ومصيرهم المحتوم بعد هذا الضلال . وحتى يدع ما يجيش فى قلبه البشرى من حرص على هداهم ، ومن رؤية الحق الذى جاء به معروفاً بينهم ! وهو حرص بشرى معروف . يرفق الله سبحانه برسوله من وقعه فى حسه ،

فيبين له أن هذا ليس من أمره ، إنما هو من أمر الله .

وهى حالة يعانيها الدعاة كلما أخلصوا فى دعوتهم ، وأدركوا قيمتها وجمالها وما فيها من الخير . ورأوا الناس فى الوقت ذاته يصدون عنها ويعرضون ؛ ولا يرون ما فيها من الخير والجمال . ولا يستمتعون بما فيها من الحق والكمال . وأولى أن يدرك الدعاة هذه الحقيقة التى واسى بها الله ـ سبحانه ـ رسوله . فيبلغوا دعوتهم باذلين فيها أقصى الجهد . ثم لا يأسوا بعد ذلك على من لم يقدر له الله الصلاح والفلاح .

« إن الله عليم بما يصنعون » ..

وهو يقسم لهم الهدى أو الضلال وفق علمه بحقيقة صنعهم . والله يعلم هذه الحقيقة قبل أن تكون منهم ؛ ويعلمها بعد أن تكون . وهو يقسم لهم وفق علمه الأزلى . ولكنه لا يحاسبهم على ما يكون منهم إلا بعد أن يكون .

* * *

وبذلك ينتهى المقطع الثانى فى السورة . وهو متصل بالمقطع الأول . ومتسق كذلك مع المقطع الذى يليه ..

« وَٱللَّهُ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ ، فَتُثِيرُ سَحَابًا ، فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ، فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ .

« مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُ ؛ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ .

« وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ، ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ؛ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ؛ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ .

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ـ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ، لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

« يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ، وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱللَّيْلِ ؛ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى . ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ، لَهُ ٱلْمُلْكُ ، وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَايَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ؛ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ ؛ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » ..

هـذا المقطع الثالث جولات متتابعة فى المجال الـكونى الذى يعرض فيـه القرآن دلائل الإيمان ؛ ويتخذ من مشاهده المعروضة للبصائر والأبصار أدلته وبراهينه .

وهذه الجولات المتتابعة تجىء فى السورة عقب الحديث عن الهدى والضلال ، وعن تسلية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن إعراض المعرضين ، وتفويض هـذا الأمر لصاحبه العليم بما يصنعون .. فمن شاء أن يؤمن فهذه أدلة الإيمان معروضة فى صفحة الـكون حيث لاخفاء فيها ولا غموض . ومن شاء أن يضل فهو يضل عن بينة وقد أخذته الحجة من كل جانب .

وفى مشهد الحياة النابضة بعد الموات حجة . وفيـه دليل على البعث والنشور . وفى خلق الإنسان من تراب ، ثم صيرورته إلى هذا الخلق الراقى حجة . وكل مرحلة من مراحل خلقه وحياته تمضى وفق قدر مرسوم فى كتاب مبين .

وفى مشهد البحرين المتميزين وتنويعهما حجة . وفيهما من نعم الله على الناس ما يقتضى الشكر والعرفان .

وفى مشهد الليل والنهار يتداخلان ويطولان ويقصران حجة . وفيهما على التقدير والتدبير دليل . وكذلك مشهد الشمس والقمر مسخرين بهذا النظام الدقيق العجيب .

هذه كلها حجج ودلائل معروضة فى المجال الـكونى الفسيح . وهـذا هو الله خالقها ومالـكها . والذين يدعون من دون الله مايملـكون من قطمير . ولا يسمعون ولايستجيبون .

ويوم القيامة يتبرأون من عبادهم الضلال . فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

* * *

« والله الذى أرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها . كذلك النشور » . .

وهـذا المشهد يتردد فى معرض دلائل الإيمان الكونية فى القرآن . مشهد الرياح ، تثير السحب ؛ تثيرها من البحـار ، فالرياح الساخنة هى المثيرة للبخار ؛ والرياح الباردة هى المكثفة له حتى يصير سحابا ؛ ثم يسوق الله هـذا السحاب بالتيارات الهوائية فى طبقات الجو المختلفة ، فتذهب يمينا وشمالا إلى حيث يريد الله لها أن تذهب ، وإلى حيث يسخرها ويسخر مثيراتها من الرياح والتيارات ، حتى تصل إلى حيث يريد لها أن تصل .. إلى بلد ميت .. مقدر فى علم الله أن تدب فيـه الحياة بهذا السحاب . والماء حياة كل شىء فى هذه الأرض . « فأحيينا به الأرض بعد موتها » . . وتتم الخارقة التى تحدث فى كل لحظة والناس فى غفلة عن العجب العاجب فيهـا . وهم مع وقوع هـذه الخارقة فى كل لحظة يستبعدون النشور فى الآخرة . وهو يقع بين أيديهم فى الدنيا . . « كذلك النشور » . . فى بساطة ويسر ، وبلا تعقيد ولا جدل بعيد !

هذا المشهد يتردد فى معرض دلائل الإيمان الكونية فى القرآن لأنه دليل واقعى ملموس ، لا سبيل إلى المكابرة فيه . ولأنه من جانب آخر يهز القلوب حقا حين تتملاه وهى يقظى ؛ ويلمس المشاعر لمسا موحيا حين تتجه إلى تأمله . وهو مشهد بهيج جميل مثير . وبخاصة فى الصحراء حيث يمر عليها الإنسان اليوم وهى محل جدب جرداء . ثم يمر عليهـا غدا وهى ممرعة خضراء من آثار الماء . والقرآن يتخذ موحياته من مألوف البشر المتاح لهم ، مما يمرون عليه غافلين . وهو معجز معجب حين تتملاه البصائر والعيون .

* * *

ومن مشهد الحياة النابضة فى الموات ينتقل نقلة عجيبة — شيئا — إلى معنى نفسى ومطلب شعورى .

ينتقل إلى معنى العزة والرفعة والمنعة والاستعلاء . ويربط هذا المعنى بالقول الطيب الذى يصعد إلى الله والعمل الصالح الذى يرفعه الله . كما يعرض الصفحة المقابلة . صفحة التدبير السيء والمكر الخبيث ، وهو يهلك ويبور :

« من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » ..

ولعل الرابط الذي يصل بين الحياة النامية في الموات ، والكلمة الطيبة والعمل الصالح ، هو الحياة الطيبة في هذه وفي تلك ؛ وما بينهما من صلة في طبيعة الكون والحياة . وهي الصلة التي سبقت الإشارة إليها في سورة إبراهيم . « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » .. وهو شبه حقيقي في طبيعة الكلمة وطبيعة الشجرة ؛ وما فيهما من حياة ونماء . والكلمة تنمو وتمتد وتثمر كما تنمو الشجرة وتمتد وتثمر سواء بسواء !

وقد كان المشركون يشركون استبقاء لمكانتهم الدينية في مكة ، ومايقوم عليها من سيادة لقريش على القبائل بحكم العقيدة ، وما تحققه هذه السيادة من مغانم متعددة الألون . العزة والمنعة في أولها بطبيعة الحال . مما جعلهم يقولون : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ..

فالله يقول لهم :

« من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً » ..

وهذه الحقيقة كفيلة حين تستقر في القلوب أن تبدل المعايير كلها ، وتبدل الوسائل والخطط أيضاً !

إن العزة كلها لله . وليس شيء منها عند أحد سواه . فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره . ليطلبها عند الله ، فهو واجدها هناك وليس بواجدها عند أحد ، ولا في أي كنف ، ولا بأي سبب « فإن العزة لله جميعاً » . .

إن الناس الذين كانت قريش تبتغي العزة عندهم بعقيدتها الوثنية المهلهلة ؛ وتخشى اتباع الهدى — وهي تعترف أنه الهدى — خشية أن تصاب مكانتها بينهم بأذى . إن الناس هؤلاء . القبائل والعشائر وما إليها . إن هؤلاء ليسوا مصدراً للعزة ، ولا يملكون أن يعطوها أو يمنعوها « فإن العزة لله جميعاً » . . وإذا كانت لهم قوة فمصدرها الأول هو الله . وإذا كانت لهم منعة فواهبها هو الله . وإذن فمن كان يريد العزة والمنعة فليذهب إلى المصدر الأول ، لا إلى الآخذ المستمد من هذا المصدر . ليأخذ من الأصل الذي يملك وحده كل العزة ، ولا يذهب يطلب قمامة الناس وفضلاتهم . وهم مثله طلاب محاويج ضعاف !

إنها حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية . وهى حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين ، وتعديل الحكم والتقدير ، وتعديل النهج والسلوك ، وتعديل الوسائل والأسباب ! ويكفى أن تستقر هذه الحقيقة وحدها فى أى قلب لتقف به أمام الدنيا كلها عزيزاً كريماً ثابتاً فى وقفته غير مزعزع ، عارفا طريقه إلى العزة ، طريقه الذى ليس هنالك سواه !

إنه لن يحنى رأسه لمخلوق متجبر . ولا لعاصفة طاغية . ولا لحدث جلل . ولا لوضع ولا لحكم . ولا لدولة ولا لمصلحة ، ولا لقوة من قوى الأرض جميعاً . وعلام ؟ والعزة لله جميعاً . وليس لأحد منها شىء إلا برضاه ؟

ومن هنا يذكر الكلم الطيب والعمل الصالح :

« إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » . .

ولهذا التعقيب المباشر بعد ذكر الحقيقة الضخمة مغزاه وإيحاؤه . فهو إشارة إلى أسباب العزة ووسائلها لمن يطلبها عند الله . القول الطيب والعمل الصالح . القول الطيب الذى يصعد إلى الله فى علاه ؛ والعمل الصالح الذى يرفعه الله إليه ويكرمه بهذا الارتفاع . ومن ثم يكرم صاحبه ويمنحه العزة والاستعلاء .

والعزة الصحيحة حقيقة تستقر فى القلب قبل أن يكون لها مظهر فى دنيا الناس . حقيقة تستقر فى القلب فيستعلى بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله . حقيقة يستعلى بها على نفسه أول مايستعلى . يستعلى بها على شهواته المذلة، ورغائبه القاهرة، ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس . ومتى استعلى على هذه فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه . فإنما تذل الناس شهواتهم ورغباتهم ، ومخاوفهم ومطامعهم . ومن استعلى عليها فقد استعلى على كل وضع وعلى كل شىء وعلى كل إنسان . . وهذه هى العزة الحقيقية ذات القوة والاستعلاء والسلطان !

إن العزة ليست عنادا جامحاً يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل . وليست طغيانا فاجراً يضرب فى عتو وتجبر وإصرار . وليست اندفاعاً باغياً يخضع للنزوة ويذل للشهوة . وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل ولاصلاح . . كلا ! إنما العزة استعلاء على شهوة النفس ، واستعلاء على القيد والذل ، واستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله . ثم هى خضوع لله وخشوع ؛ وخشية لله وتقوى ، ومراقبة لله فى السراء والضراء . . ومن هذا الخضوع لله ترتفع الجباه . ومن هذه الخشية لله تصمد لكل مايأباه . ومن هذه المراقبة لله لاتعنى إلا برضاه .

هذا مكان الكلم الطيب والعمل الصالح من الحديث عن العزة ، وهذه هى الصلة بين هذا المعنى وذاك فى السياق . ثم تكمل بالصفحة المقابلة :

« والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » .

ويمكرون هنا مضمنة معنى يدبرون . ولكنه عبر بها لغلبة استعمالها فى السوء . فهؤلاء لهم عذاب شديد . فوق أن مكرهم وتدبيرهم يبور . فلا يحيا ولا يثمر . من البوار ومن البوران سواء . وذلك تنسيقاً مع إحياء الأرض وإثمارها فى الآية السابقة .

والذين يمكرون السيئات يمكرونها طلبا للعزة الكاذبة ، والغلبة الموهومة . وقد يبدو فى الظاهر أنهم أعلياء ، وأنهم أعزاء ، وأنهم أقوياء . ولكن القول الطيب هو الذى يصعد إلى الله ، والعمل الصالح هو الذى يرفعه إليه . وبهما تكون العزة فى معناها الواسع الشامل . فأما المكر السيء قولا وعملا فليس سبيلا إلى العزة ولوحقق القوة الطاغية الباغية فى بعض الأحيان . إلا أن نهايته إلى البوار وإلى العذاب الشديد . وعد الله . لا يخلف الله وعده . وإن أمهل الماكرين بالسوء حتى يحين الأجل المحتوم فى تدبير الله المرسوم .

***

ثم يجىء مشهد النشأة الأولى للإنسان بعد الكلام عن نشأة الحياة كلها بالماء . ويذكر مايلابس تلك النشأة من حمل فى البطون ؛ ومن عمر طويل وعمر قصير . وكله فى علم الله المكنون .

« والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجاً . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على يسير » . .

والإشارة إلى النشأة الأولى من التراب تتردد كثيراً فى القرآن ؛ وكذلك الإشارة إلى أول مراحل الحمل: النطفة . . والتراب عنصر لا حياة فيه ، والنطفة عنصر فيه الحياة . والمعجزة الأولى هى معجزة هذه الحياة التى لا يعلم أحد كيف جاءت ، ولا كيف تلبست بالعنصر الأول . ومازال هذا سراً مغلقاً على البشر ؛ وهو حقيقة قائمة مشهودة ، لا مفر من مواجهتها والاعتراف بها . ودلالتها على الخالق المحيى القدير دلالة لا يمكن دفعها ولا المماحكة فيها .

هذا والنقلة من غير الحى إلى الحى نقلة بعيدة بعيدة أكبر وأضخم من كل أبعاد الزمان والمكان . وتأمل هذه النقلة لا ينتهى ولا يمله القلب الحى الذى يتدبر أسرار هذا الوجود العجيبة . وكل سر منها أضخم من الآخر وأعجب صنعا .

والنقلة بعد ذلك من النطفة التي تمثل مرحلة الخلية الواحدة إلى الخلقة الكاملة السوية للجنين ، حين يتميز الذكر من الأنثى ، وتتحقق الصورة التي يشير إليها القرآن في هذه الآية : « ثم جعلكم أزواجا » .. سواء كان المقصود جعلكم ذكرا وأنثى وأنتم أجنة ، أو كان المقصود جعلكم أزواجا بعد ولادتكم وتزاوج الذكر والأنثى . . هذه النقلة من النطفة إلى هذين النوعين المتميزين نقلة بعيدة كذلك بعيدة ! فأين الخلية الواحدة في النطفة من ذلك الكائن الشديد التركيب والتعقيد ، الكثير الأجهزة المتعدد الوظائف ؟ وأين تلك الخلية المبهمة من ذلك الخلق الحافل بالخصائص المتميزة ؟

إن تتبع هذه الخلية الساذجة وهي تنقسم وتتوالد ؛ وتتركب كل مجموعة خاصة من الخلايا المتولدة منها لتكوين عضو خاص له وظيفة معينة وطبيعة معينة . ثم تعاون هذه الأعضاء وتناسقها وتجمعها لتكون مخلوقا واحدا على هذا النحو العجيب ؛ ومخلوقا متميزا من سائر المخلوقات الأخرى من جنسه ، بل من أقرب الناس إليه ، بحيث لا يتماثل أبدا مخلوقان اثنان .. وكلهم من نطفة لا تميز فيها يمكن إدراكه ! .. ثم تتبع هذه الخلايا حتى تصير أزواجا ، قادرة على إعادة النشأة بنطف جديدة ، تسير في ذات المراحل ، دون انحراف .. إن هذا كله لعجب لا ينقضي منه العجب . ومن ثم هذه الإشارة التي تتردد في القرآن كثيراً عن تلك الخارقة المجهولة السر ؛ بل تلك الخوارق المجهولة الأسرار ! لعل الناس يشغلون قلوبهم بتدبرها ، ولعل أرواحهم تستيقظ على الإيقاع المتكرر عليها !

وإلى جوار هذه الإشارة هنا يعرض صورة كونية لعلم الله ( كالصور التي جاء ذكرها في هذا الجزء في سورة سبأ ) صورة علم الله المحيط بكل حمل تحمله أنثى في هذه الأرض جميعا :

« وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » ..

والنص يتجاوز إناث الإنسان إلى إناث الحيوان والطير والأسماك والزواحف والحشرات . وسواها مما نعلمه ومما لا نعلمه وكلها تحمل وتضع حتى ما يبيض منها ، فالبيضة حمل من نوع خاص . جنين لا يتم نموه في داخل جسم الأم ؛ بل ينزل بيضة ، ثم يتابع نموه خارج جسم الأم بحضانتها هي أو بحضانة صناعية حتى يصبح جنينا كاملا ثم يفقس ويتابع نموه العادي .

وعلم الله على كل حمل وعلى كل وضع في هذا الكون المتراحي الأطراف !!!

وتصوير علم الله المطلق على هذا النحو العجيب ليس من طبيعة الذهن البشري أن يتجه إليه لا في التصور ولا في التعبير — كما قلنا في سورة سبأ — فهو بذاته دليل على أن الله هو منزل

هذا القرآن . وهذه إحدى السمات الدالة على مصدره الإلهى المتفرد .

ومثلها الحديث عن العمر فى الآية ذاتها :

« وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير » ..

فإن الخيال إذا مضى يتدبر ويتتبع جميع الأحياء فى هذا الكون من شجر وطير وحيوان وإنسان وسواه على اختلاف فى الأحجام والأشكال والأنواع والأجناس والمواطن والأزمنة ؛ ثم يتصور أن كل فرد من أفراد هذا الحشد ـ الذى لا يمكن حصره ، ولا يعلم إلا خالقه عدده ـ يعمر فيطول عمره ، أو ينقص من عمره فيقصر وفق قدر مقدور ، ووفق علم متعلق بهذا الفرد ، متابع له ، عمر أم لم يعمر .

بل متعلق بكل جزء من كل فرد . يعمر أو ينقص من عمره . فهذه الورقة من تلك الشجرة يطول عمرها أو تذبل أو تسقط عن قريب . وهذه الريشة من ذلك الطائر يطول مكثها أو تذهب مع الريح . وهذا القرن من ذلك الحيوان يبقى طويلا أو يتحطم فى صراع . وهذه العين فى ذلك الإنسان أو هذه الشعرة تبقى وتسقط وفق تقدير معلوم .

كل ذلك «فى كتاب» .. من علم الله الشامل الدقيق . وأن ذلك لا يكلف جهدا ولا عسرا : « إن ذلك على الله يسير » ..

إذا مضى الخيال يتدبر هذا ويتتبعه ؛ ثم يتصور ما وراءه .. إنه لأمر عجيب جد عجيب .. وإنه لاتجاه إلى حقيقة لا يتجه إليها التفكير البشرى على هذا النحو . واتجاه إلى تصور هذه الحقيقة وتصويرها على غير مألوف البشر كذلك . وإنما هو التوجيه الإلهى الخاص إلى هذا الأمر العجيب .

والتعمير يكون بطول الأجل وعد الأعوام؛ كما يكون بالبركة فى العمر، والتوفيق إلى إنفاقه إنفاقا مثمرا ، واحتشاده بالمشاعر والحركات والأعمال والآثار . وكذلك يكون نقص العمر بقصره فى عد السنين ؛ أو نزع البركة منه وإنفاقه فى اللهو والعبث والكسل والفراغ .

ورب ساعة تعدل عمرا بما يحتشد فيها من أفكار ومشاعر، وبما يتم فيها من أعمال وآثار. ورب عام يمر خاويا فارغا لا حساب له فى ميزان الحياة ، ولا وزن له عند الله !

وكل ذلك فى كتاب .. كل ذلك من كل كائن فى هذا الكون الذى لا يعرف حدوده إلا الله . .

والجماعات كالآحاد . والأمم كالأفراد .. كل منها يعمر أو ينقص من عمره . والنص يشمله .

بل إن الأشياء لكالأحياء . وإنى لأتصور الصخرة المعمرة ، والكهف المعمر ، والنهر المعمر ، والصخرة التى ينتهى أجلها أو يقصر فإذا هى فتات ؛ والكهف الذى ينتهى أجله أو يقصر فإذا هو محطم أو مسدود ؛ والنهر الذى ينتهى أجله أو يقصر فإذا هو غائض أو مبدد !

ومن الأشياء ما تصنعه يد الإنسان . البناء المعمر أو القصير العمر . والجهاز المعمر أو قصير العمر . والثوب المعمر أو قصير العمر .. وكلها ذات آجال وأعمار فى كتاب الله كالإنسان .

وكلها من أمر الله العليم الخبير . .

وإن تصور الأمر على هذا النحو ليوقظ القلب إلى تدبر هذا الكون بحس جديد ، وأسلوب جديد . وإن القلب الذى يستشعر يد الله وعينه على كل شىء بمثل هذه الدقة ليصعب أن ينسى أو يغفل أو يضل . وهو حيثما تلفت وجد يد الله . ووجد عين الله . ووجد عناية الله ، ووجد قدرة الله ، متمثلة ومتعلقة بكل شئ فى هذا الوجود .

وهكذا يصنع القرآن القلوب !

* * *

ويمضى السياق إلى لفتة أخرى فى هذه الجولة الكونية المتعددة اللفتات . يمضى إلى مشهد الماء فى هذه الأرض من زاوية معينة . زاوية تنويع الماء . فهذا عذب سائغ ، وهذا ملح مر . وكلاهما يفترقان ويلتقيان — بتسخير الله — فى خدمة الإنسان .

« وما يستوى البحران .. هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج . . ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها . وترى الفلك فيه مواخر . لتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » . .

إن إرادة التنويع فى خلق الماء واضحة ؛ ووراءها حكمة — فيما نعلم — ظاهرة ؛ فأما الجانب العذب السائغ اليسير التناول فنحن نعرف جانبا من حكمة الله فيما نستخدمه وننتفع به ؛ وهو قوام الحياة لكل حى . وأما الجانب اللح المر وهو البحار والمحيطات فيقول أحد العلماء فى بيان التقدير العجيب فى تصميم هذا الكون الضخم :

« وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور — ومعظمها سام — فإن الهواء باق دون تلويث فى الواقع ، ودون تغير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان .

وعجلة الموازنة العظيمة هى تلك الكتلة الفسيحة من الماء ـ أى المحيط ـ الذى استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل ، والنباتات . وأخيرا الإنسان نفسه . . »[١] .

وهـذا بعض ما تكشف لنا من حكمة الخلق والتنويع ، واضح فيه القصد والتدبير ، ومنظور فيه إلى تناسقات وموازنات يقوم بعضها على بعض فى حياة هـذا الكون ونظامه . ولا يصنع هذا إلا الله خالق هذا الكون وما فيه ومن فيه . فإن هذا التنسيق الدقيق لا يجىء مصادفة واتفاقا بحال من الأحوال . والإشارة إلى اختلاف البحرين توحى بمعنى القصد فى هذه التفرقة وفى كل تفرقة أخرى . وستأتى فى السورة إشارات إلى نماذج منها فى عالم المشاعر والاتجاهات والقيم والموازين .

ثم يلتقى البحران المختلفان فى تسخيرها للإنسان :

« ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر » ..

واللحم الطرى هو الأسماك والحيوانات البحرية على اختلافها . والحلية من اللؤلؤ والمرجان . واللؤلؤ يوجد فى أنواع من القواقع يتكون فى أجسامها نتيجة دخول جسم غريب كحبة رمل أو نقطة ماء ، فيفرز جسم القوقعة داخل الصدفة إفرازاً خاصاً يحيط به هذا الجسم الغريب ، كى لا يؤذى جسم القوقعة الرخو . وبعد زمن معين يتصلب هذا الإفراز ، ويتحول إلى لؤلؤة ! والمرجان نبات حيوانى يعيش ويكون شعاباً مرجانية تمتد فى البحر أحياناً عدة أميال ، وتتكاثر حتى تصبح خطرا على الملاحة فى بعض الأحيان ؛ وخطرا على كل حى يقع فى براثنها ! وهو يقطع بطرق خاصة وتتخذ منه الحلى !

والفلك تمخر البحار والأنهار ـ أى تشقها ـ بما أودع الله الأشياء فى هذا الكون من خصائص . ولكثافة الماء وكثافة الأجسام التى تتكون منها السفن دخل فى إمكان طفو السفن على سطح الماء وسيرها فيه . وللرياح كذلك . وللقوى التى سخرها الله للإنسان وعرفه كيف يستخدمها كقوة البخار وقوة الكهرباء وغيرهما من القوى . وكلها من تسخير الله للإنسان .

« لتبتغوا من فضله » . . بالسفر والتجارة ، والانتفاع باللحم الطرى والحلى واستخدام الماء والسفن فى البحار والأنهار .

---

(١) كتاب : الإنسان لا يقوم وحده تأليف ( ا . كريسى . موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ) ترجمة محمود صالح الفلكى بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .

« ولعلكم تشكرون » . . وقد يسر الله لكم أسباب الشكر ، وجعلها حاضرة بين أيديكم . ليعينكم على الأداء .

* * *

ويختم هذا القطع بجولة كونية فى مشهد الليل والنهار . ثم فى تسخير الشمس والقمر وفق النظام المرسوم لجريانهما إلى الأجل المعلوم :

« يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل . وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى » . .

وإيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل قد يعنى ذينك المشهدين الرائعين . مشهد دخول الليل فى النهار ، والضياء يغيب قليلا قليلا ، والظلام يدخل قليلا قليلا حتى يكون الغروب ومايليه من العتمة البطيئة الدبيب . ومشهد دخول النهار فى الليل حينما يتنفس الصبح ، وينتشر الضياء رويداً رويداً ، ويتلاشى الظلام رويداً رويداً ، حتى تشرق الشمس ويعم الضياء . . كذلك قد يعنى طول الليل وهو يأكل من النهار وكأنما يدخل فيه . وطول النهار وهو يأكل من الليل وكأنما يدخل فيه . . وقد يعنيهما معا بتعبير واحد . وكلها مشاهد تطوّف بالقلب فى سكون ، وتغمره بشعور من الروعة والتقوى ؛ وهو يرى يد الله تمد هذا الخط ، وتطوى ذاك الخط ، وتشد هـذا الخيط وترخى ذاك الخيط . فى نظام دقيق مطرد لايتخلف مرة ولايضطرب . ولايختل يوماً أوعاماً على توالى القرون . .

وتسخير الشمس والقمر وجريانهما للأجل المرسوم لهما ، والذى لايعلمه إلا خالقهما . . هو الآخر ظاهرة يراها كل إنسان . سواء كان يعلم أحجام هذين الجرمين ، ونوعهما من النجوم والكواكب ومدارهما ودورتهما ومداها . . أم لايعلم من هـذا كله شيئاً . فهما بذاتهما يظهران ويختفيان أمام كل إنسان ، ويصعدان وينحدران أمام كل بصر . وهذه الحركة الدائبة التى لاتفتر ولا تختل حركة مشهودة لايحتاج تدبرها إلى علم وحساب ! ومن ثم فهى آية معروضة فى صفحة الكون لجميع العقول وجميع الأجيال على السواء . وقد ندرك نحن اليوم علمها الظاهر أكثر مما كان يدرك المخاطبون بهذا القرآن لأول مرة . وليس هـذا هو المهم . إنما المهم أن توحى إلينا ما كانت توحيه إليهم ، وأن تهز قلوبنا كما كانت تهز قلوبهم ، وأن تثير فينا من التدبر ورؤية يد الله المبدعة وهى تعمل فى هـذا الكون العجيب ما كانت تثير فيهم . . والحياة حياة القلوب . .

* * *

وفى ظل تلك المشاهد المتنوعة العميقة الدلالة القوية السلطان يعقب بتقرير حقيقة الربوبية ، وبطلان كل ادعاء بالشرك ، وخسران عاقبته يوم القيامة :

« ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم . ولو سمعوا ما استجابوا لكم . ويوم القيامة يكفرون بشرككم . ولاينبئك مثل خبير » . .

ذلكم . الذى أرسل الرياح بالسحاب ، والذى أحيا الأرض بعد موتها ، والذى خلقكم من تراب ، والذى جعلكم أزواجاً ، والذى يعلم ماتحمل كل أنثى وماتضع ، والذى يعلم مايعمر وماينقص من عمره ، والذى خلق البحرين ، والذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . . ذلكم هو « الله ربكم » . .

« له الملك » . . « والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير » . . والقطمير غلافه النواة ! وحتى هذا الغلاف الزهيد لايملكه أولئك الذين يدعونهم من دون الله !

ثم يمعن فى الكشف عن حقيقة أمرهم .

« إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم » . .

فهم أصنام أو أوثان أو أشجار ، أو نجوم أو كواكب ، أو ملائكة أو جن . . وكلهم لايملكون بالفعل قطميرا . وكلهم لايسمعون لعبادهم الضالين . سواء كانوا لايسمعون أصلا ، أو لايسمعون لكلام البشر . .

« ولو سمعوا ما استجابوا لكم » . .

كالجن والملائكة . فالجن لايملكون الاستجابة . والملائكة لايستجيبون للضالين .

هذا فى الحياة الدنيا . فأما يوم القيامة فيبرأون من الضلال والضالين :

« ويوم القيامة يكفرون بشرككم » . .

يحدث بهذا الخبير بكل شئ . وبكل أمر . وبالدنيا والآخرة :

« ولاينبئك مثل خبير » . .

وبهذا ينتهى هذا المقطع ، وتختم هـذه الجولات والمشاهد فى تلك العوالم ؛ ويعود القلب البشرى منها بزاد يكفيه حياته كلها لوينتفع بالزاد . وإنه لحسب القلب البشرى مقطع واحد من سورة واحدة لوكان الذى يريد هو الهدى ، ولو كان الذى يطلب هو البرهان !

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ .

« وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ؛ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

« وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ؟ » .

مرة أخرى يرجع إلى الهتاف بالناس أن ينظروا فى علاقتهم بالله ، وفى حقيقة أنفسهم ؛ ويرجع إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — بالتسلية عما يلقى ، والتسرية عما يجد من إعراض وضلال — كالشأن فى المقطع الثانى من السورة — ويزيد هنا الإشارة إلى أن طبيعة الهدى غير طبيعة الضلال ، وأن الاختلاف بين طبيعتهما أصيل عميق كأصالة الاختلاف بين العمى والبصر والظلمات والنور والظل والحرور والموت والحياة . وأن بين الهدى والبصر والنور والظل والحياة صلة وشبها ؛ كما أن بين العمى والظلمة والحرور والموت صلة وشبها ! ثم تنتهى الجولة بإشارة إلى مصارع المكذبين للتنبيه والتحذير .

* * *

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز » ..

إن الناس فى حاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة فى معرض دعوتهم إلى الهدى ، ومجاهدتهم ليخرجوا مما هم فيه من الظلمات إلى نور الله وهداه . فى حاجة إلى تذكيرهم بأنهم هم الفقراء المحاويج إلى الله . وأن الله غنى عنهم كل الغنى . وأنهم حين يدعون إلى الإيمان بالله وعبادته وحمده على آلائه فإن الله غنى عن عبادتهم وحمدهم ، وهو المحمود بذاته . وأنهم لا يعجزون الله ولا يعزون عليه فهو إن شاء أن يذهب بهم ويأتى بخلق جديد من جنسهم أو من جنس آخر يخلفهم فى الأرض ، فإن ذلك عليه يسير . .

الناس فى حاجة إلى أن يذكروا بهذه الحقيقة ، لئلا يركبهم الغرور وهم يرون أن الله — جل وعلا — يعنى بهم ، ويرسل إليهم الرسل ؛ ويجاهد الرسل أن يردوهم عن الضلالة إلى الهدى ، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور . ويركبهم الغرور فيظنون أنهم شىء عظيم على الله ! وأن هداهم وعبادتهم تزيد شيئا فى ملكه تعالى ! والله هو الغنى الحميد .

وإن الله سبحانه يمنح العباد من رعايته ، ويفيض عليهم من رحمته ، ويغمرهم بسابغ فضله — بإرسال رسله إليهم ، واحتمال هؤلاء الرسل ما يحتملون من إعراضهم وإيذائهم ، وثباتهم على الدعوة إلى الله بعد الإعراض والإيذاء . . إن الله سبحانه إنما يعامل عباده هكذا رحمة منه وفضلا وكرما ومنا . لأن هذه صفاته المتعلقة بذاته . لا لأن هؤلاء العباد يزيدون فى ملكه شيئا بهداهم ، أو ينقصون من ملكه شيئا بعماهم . ولا لأن هؤلاء العباد مخلوقات نادرة عزيزة صعبة الإعادة أو الاستبدال ، فيغتفر لهم ما يقع منهم لأنهم صنف لا يعاد ولا يستبدل .

وإن الإنسان ليدهش ويحار فى فضل الله ومنه وكرمه ، حين يرى هذا الإنسان الصغير الضئيل الجاهل القاصر ، الضعيف العاجز ، ينال من عناية الله ورعايته كل هذا القدر الهائل !

والإنسان ساكن صغير من سكان هذه الأرض . والأرض تابع صغير من توابع الشمس . والشمس نجم مما لا عد له ولا حصر من النجوم . والنجوم إن هى إلا نقط صغيرة — على ضخامتها الهائلة — متناثرة فى فضاء الكون الذى لا يعلم الناس حدوده . وهذا الفضاء الذى تتناثر فيه تلك النجوم كالنقط التائهة إن هو إلا بعض خلق الله !

ثم ينال الإنسان من الله كل هذه الرعاية . . ينشئه . ويستخلفه فى الأرض . ويهبه كل أدوات الخلافة — سواء فى تكوينه وتركيبه أو تسخير القوى والطاقات الكونية اللازمة له فى خلافته — ويضل هذا المخلوق ويتبجح حتى ليشرك بربه أو ينكره . فيرسل الله

إليه الرسل ، رسولا بعد رسول ، وينزل على الرسل الكتب والخوارق . ويطرد فضل الله ويفيض حتى لينزل فى كتابه الأخير للبشر قصصا يحدث بها الناس ، ويقص عليهم ما وقع لأسلافهم ، ويحدثهم عن ذوات أنفسهم ، ويكشف لهم عما فيها من قوى وطاقات ، ومن عجز وضعف ، بل إنه ــ سبحانه ــ ليحدث عن فلان وفلان بالذات ، فيقول لهذا : أنت فعلت وأنت تركت ، ويقول لذاك : هاك حلا لمشكلتك ، وهاك خلاصا من ضيقتك !

كل ذلك ، وهذا الإنسان هو الساكن الصغير من سكان هذه الأرض ، التابعة الصغيرة من توابع الشمس ، التائهة فى هذا الوجود الكبير حتى ما تكاد تحس ! والله ــ سبحانه ــ هو فاطر السماوات والأرض ، وخالق هذا الوجود بما فيه ومن فيه بكلمة . بمجرد توجه الإرادة . وهو قادر على أن يخلق مثله بكلمة وبمجرد توجه الإرادة ..

والناس خلقاء أن يدركوا هذه الحقيقة ليدركوا مدى فضل الله ورعايته ورحمته . وليستحيوا أن يستجيبوا للفضل الخالص والرعاية المجردة والرحمة الفائضة بالإعراض والجحود والنكران .

فهى من هذه الناحية لمسة وجدانية موحية ، إلى جانب أنها حقيقة صادقة واقعة . والقرآن يلمس بالحقائق قلوب البشر ؛ لأن الحقيقة حين تجلى أفعل فى النفس ؛ ولأنه هو الحق وبالحق نزل . فلا يتحدث إلا بالحق ، ولا يقنع إلا بالحق ، ولا يعرض إلا الحق ، ولا يشير بغير الحق ..

* * *

ولمسة أخرى بحقيقة أخرى . حقيقة فردية التبعة ، والجزاء الفردى الذى لا يغنى فيه أحد عن أحد شيئا . فما بالنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من حاجة إلى هدايتهم يحققها لنفسه ، فهو محاسب على عمله وحده ، كما أن كلا منهم محاسب على ما كسبت يداه ، يحمل حمله وحده ، لا يعينه أحد عليه . ومن يتطهر فإنما يتطهر لنفسه ، وهو الكاسب وحده لا سواه ؛ والأمر كله صائر إلى الله :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى . وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى » ..

« ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه . وإلى الله المصير » ..

وحقيقة فردية التبعة والجزاء ذات أثر حاسم فى الشعور الأخلاقى ، وفى السلوك العملى سواء . فشعور كل فرد بأنه مجزى بعمله ، لا يؤاخذ بكسب غيره ، ولا يتخلص هو من كسبه ، عامل قوى فى يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب ! مع التخلى عن كل أمل خادع فى أن ينفعه أحد بشىء ، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً . كما أنه — فى الوقت ذاته — عامل مطمئن ، فلا يقلق الفرد خيفة أن يؤخذ بجريرة الجماعة ؛ فيطيش وييئس من جدوى عمله الفردى الطيب . ما دام قد أدى واجبه فى النصح للجماعة ومحاولة ردها عن الضلال بما يملك من وسيلة .

إن الله — سبحانه — لا يحاسب الناس جملة بالقائمة ! إنما يحاسبهم فردا فردا ؛ كل على عمله، وفى حدود واجبه . ومن واجب الفرد أن ينصح وأن يحاول الإصلاح غاية جهده . فإذا قام بقسطه هذا فلا عليه من السوء فى الجماعة التى يعيش فيها ، فإنما هو محاسب على إحسانه . كذلك لن ينفعه صلاح الجماعة إذا كان هو بذاته غير صالح . فالله لا يحاسب عباده بالقائمة كما أسلفنا !

والتعبير القرآنى يصور هذه الحقيقة على طريقة التصوير فى القرآن ، فتكون أعمق وأشد أثرا . يصور كل نفس حاملة حملها . فلا تحمل نفس حمل أخرى . وحين تثقل نفس بما تحمل ثم تدعو أقرب الأقرباء ليحمل عنها شيئا، فلن تجد من يلبى دعاءها ويرفع عنها شيئا مما يثقلها!

إنه مشهد القافلة كل من فيها يحمل أثقاله ويمضى فى طريقه ، حتى يقف أمام الميزان والوزان ! وهى فى وقفتها يبدو على من فيها الجهد والإعياء . واهتمام كل بحمله وثقله ، وانشغاله عن البعداء والأقرباء !

وعلى مشهد القافلة المجهدة المثقلة ، يلتفت إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

« إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة » ..

فهؤلاء هم الذين يفلح فيهم الإنذار . هؤلاء الذين يخشون ربهم ولم يشاهدوه . ويقيمون الصلاة ليتصلوا بربهم ويعبدوه . هؤلاء هم الذين ينتفعون بك ، ويستجيبون لك . فلا عليك ممن لا يخشى الله ولا يقيم الصلاة .

« ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه » ..

لا لك . ولا لغيرك . إنما هو يتطهر لينتفع بطهره . والتطهر معنى لطيف شفاف . يشمل القلب وخوالجه ومشاعره ، ويشمل السلوك واتجاهاته وآثاره . وهو معنى موحٍ رفاف .

« وإلى الله المصير » ..

وهو المحاسب ، والمجازى ، فلا يذهب عمل صالح ، ولا يفلت عمل سيء . ولا يوكل الحكم والجزاء إلى غيره ممن يميلون أو ينسون أو يهملون ..

* * *

ولن يستوى عند الله الإيمان والكفر ، والخير والشر ، والهدى والضلال ؛ كما لا يستوى العمى والبصر ، والظلمة والنور ، والظل والحرور ، والحياة والموت . وهى مختلفة الطبائع من الأساس :

« وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات » ...

وبين طبيعة الكفر وطبيعة كل من العمى والظلمة والحرور والموت صلة . كما أن هناك صلة بين طبيعة الإيمان وطبيعة كل من النور والبصر والظل والحياة ..

إن الإيمان نور . نور فى القلب ونور فى الجوارح ، ونور فى الحواس . نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد . فالمؤمن ينظر بهذا النور . نور الله . فيرى تلك الحقائق ، ويتعامل معها ، ولا يخبط فى طريقه ولا يلطش فى خطواته !

والإيمان بصر . يرى . يرى رؤية حقيقية صادقة غير مهزوزة ولا مخلخلة . ويمضى بصاحبه فى الطريق على نور وعلى ثقة وفى اطمئنان .

والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب ، ظل من هاجرة الشك والقلق والحيرة فى التيه المظلم بلا دليل !

والإيمان حياة . حياة فى القلوب والمشاعر . حياة فى القصد والاتجاه . كما أنه حركة بانية . مثمرة . قاصدة . لا خمود فيها ولا همود . ولا عبث فيها ولا ضياع .

والكفر عمى . عمى فى طبيعة القلب . وعمى عن رؤية دلائل الحق . وعمى عن رؤية حقيقة الوجود . وحقيقة الارتباطات فيه . وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث والأشياء .

والكفر ظلمة أو ظلمات . فعندما يبعد الناس عن نور الإيمان يقعون فى ظلمات من شتى الأنواع والأشكال . ظلمات تعز فيها الرؤية الصحيحة لشىء من الأشياء .

والكفر هاجرة . حرور . تلفح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الاستقرار على هدف ، وعدم الاطمئنان إلى نشأة أو مصير . ثم تنتهى إلى حر جهنم ولفحة العذاب هناك !

والكفر موت . موت في الضمير . وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل . وانفصال عن الطريق الواصل . وعجز عن الانفعال والاستجابة الآخذين من النبع الحقيق ، المؤثرين في سير الحياة !

ولكل طبيعته ولكل جزاؤه ، ولن يستوى عندالله هذا وذاك .

* * *

وهنا يلتفت إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – يعزيه ويسرى عنه ، بتقرير حدود عمله وواجبه في دعوة الله . وترك ما تبق بعد ذلك لصاحب الأمر يفعل به ما يشاء :

« إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من في القبور . إن أنت إلا نذير . إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير . وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير . ثم أخذت الذين كفروا . فكيف كان نكير ؟ » ..

إن الفوارق أصيلة في طبيعة الكون وفي طبيعة النفس . واختلاف طباع الناس واختلاف استقبالهم لدعوة الله أصيل أصالة الفوارق الكونية في البصر والعمى ، والظل والحرور ، والظلمات والنور ، والحياة والموت .ووراء ذلك كله تقدير الله وحكمته . وقدرته على ما يشاء .

وإذن فالرسول ليس إلا نذيرا . وقدرته البشرية تقف عند هذا الحد . فما هو بمسمع من في القبور . ولا من يعيشون بقلوب ميتة فهم كأهل القبور ! والله وحده هو القادر على إسماع من يشاء ، وفق ما يشاء ، حسبما يشاء . فماذا على الرسول أن يضل من يضل ، ويعرض من يعرض متى أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، فسمع من شاء الله أن يسمع ، وأعرض من شاء الله أن يعرض ؟

ومن قبل قال الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم – : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ».

لقد أرسله الله بالحق بشيرا ونذيرا . شأنه شأن إخوانه من الرسل – صلوات الله عليهم – وهم كثير . فما من أمة إلا سبق فيها رسول :

« وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

فإن لقى من قومه التكذيب ، فتلك هى طبيعة الأقوام في استقبال الرسل ؛ لا عن تقصير من الرسل ، ولا عن نقص في الدليل :

« وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم . جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير » . .

والبينات الحجج فى صورها الكثيرة ، ومنها الخوارق المعجزة التى كانوا يطلبون أو يتحداهم بها الرسول . والزبر الصحف المتفرقة بالمواعظ والنصائح والتوجيهات والتكاليف . والكتاب المنير . الأرجح أنه كتاب موسى . التوراة . وكلهم كذبوا بالبينات والزبر والكتاب المنير .

هذا كان شأن أمم كثيرة فى استقبال رسلهم وما معهم من دلائل الهدى . فالأمر إذن ليس جديدا ، وليس فريدا ، إنما هو ماض مع سنة الأولين .

وهنا يعرض على المشركين مصائر المكذبين . لعلهم يحذرون :

« ثم أخذت الذين كفروا » . .

ويسأل سؤال تعجيب وتهويل :

« فكيف كان نكير ؟ » . .

ولقد كان النكير شديدا ، وكان الأخذ تدميرا . فليحذر الماضون على سنة الأولين ، أن يصيبهم ما أصاب الأولين !

إنها لمسة قرآنية ينتهى بها هذا المقطع . وتختم بها هذه الجولة . ثم تبدأ جولة جديدة فى واد جديد . .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ؛ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ، وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذٰلِكَ . إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ . إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللَّهِ ، وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً . يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ .

« وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ . ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ، وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ .

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ، لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا . كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ . أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا ، فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ .

« إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

وهذه الجولة قراءات فى كتاب الكون وفى الكتاب المنزل . قراءات فى كتاب الكون فى صحائفه المعجبة الرائعة ، المتنوعة الألوان والأنواع والأجناس . الثمار المتنوعة الألوان ، والجبال الملونة الشعاب ، والناس والدواب والأنعام وألوانها المتعددة الكثيرة .. هذه اللفتة العجيبة إلى تلك الصحائف الرائعة فى كتاب الكون المفتوح . . وقراءات فى الكتاب المنزل ومافيه من الحق المصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة . وتوريث هذا الكتاب للأمة المسلمة . ودرجات الوارثين . ومايتنظرهم جميعاً من نعيم بعد عفو الله وغفرانه للمسيئين ؛ ومشهدهم فى دار النعيم . ومقابلهم مشهد الكافرين الأليم . وتختم الجولة العجيبة الديدة النوعة الألوان بتقرير أن ذلك كله يتم وفقاً لعلم الله العليم بذات الصدور . .

***

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ؟ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء . إن الله عزيز غفور » . .

إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب . لفتة تطوف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها . في الثمرات . وفي الجبال . وفي الناس . وفي الدواب والأنعام . لفتة تجمع في كلمات قلائل ، بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً ، وتدع القلب مأخوذا بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً .

وتبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان . ولأن المعرض معرض أصباغ وشيات ، فإنه لايذكر هنا من الثمرات إلا ألوانها « فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » . وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسامين في جميع الأجيال . فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر . بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد . فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شيء من اختلاف اللون !

وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في ظاهرها ؛ ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية . ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها ، بل إن فيها أحيانا ما يكون على شكل بعض الثمار وحجمها كذلك حتى ما تكاد تفرق من الثمار صغيرها وكبيرها !

« ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » . .

والجدد الطرائق والشعاب . وهنا لفتة في النص صادقة ، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها . والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها . مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه ، وهناك جدد غرابيب سود ، حالكة شديدة السواد . .

واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد ، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار ، تهز القلب هزا ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي ، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة ، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة ، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان . ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصراً مشتركا بين هذه وتلك ، يستحق النظر والالتفات .

ثم ألوان الناس . وهي لاتقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر . فكل فرد

بعد ذلك متميز اللون بين بنى جنسه . بل متميز من توأمه الذى شاركه حملا واحدا فى بطن واحدة !

وكذلك ألوان الدواب والأنعام . والدواب أشمل والأنعام أخص . فالدابة كل حيوان . والأنعام هى الإبل والبقر والغنم والماعز ، خصصها من الدواب لقربها من الإنسان . والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء .

هذا الكتاب الكونى الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين ، يفتحه القرآن ويقلب صفحاته ويقول : إن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » . .

وهذه الصفحات التى قلبها فى هذا الكتاب هى بعض صفحاته ، والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب . ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية . يعرفونه بآثار صنعته . ويدركونه بآثار قدرته . ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه . ومن ثم يخشونه حقا ويتقونه حقا، ويعبدونه حقا . لا بالشعور الغامض الذى يجده القلب أمام روعة الكون . ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر . . وهذه الصفحات نموذج من الكتاب . . والألوان والأصباغ نموذج من بدائع التكوين الأخرى وبدائع التنسيق التى لا يدركها إلا العلماء بهذا الكتاب . العلماء به علما واصلا . علما يستشعره القلب ، ويتحرك به ، ويرى به يد الله المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق فى ذلك الكون الجميل .

إن عنصر الجمال يبدو مقصودا قصدا فى تصميم هذا الكون وتنسيقه . ومن كمال هذا الجمال أن وظائف الأشياء تؤدى عن طريق جمالها . هذه الألوان العجيبة فى الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التى تفوح . ووظيفة النحل والفراش بالقياس إلى الزهرة هى القيام بنقل اللقاح ، لتنشأ الثمار . وهكذا تؤدى الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها ! . . والجمال فى الجنس هو الوسيلة لجذب الجنس الآخر إليه . لأداء الوظيفة التى يقوم بها الجنسان . وهكذا تتم الوظيفة عن طريق الجمال .

الجمال عنصر مقصود قصدا فى تصميم هذا الكون وتنسيقه . ومن ثم هذه اللفتات فى كتاب الله المنزل إلى الجمال فى كتاب الله المعروض .

« إن الله عزيز غفور » . .

عزيز قادر على الإبداع وعلى الجزاء . غفور يتدارك بمغفرته من يقصرون فى خشيته ، وهم يرون بدائع صنعته .

* * *

ومن كتاب الكون ينتقل الحديث إلى الكتاب المنزل ، والذين يتلونه ، ومايرجون من تلاوته ، وما ينتظرهم من جزاء :

« إن الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيــة ، يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله . إنه غفور شكور » . .

وتلاوة كتاب الله تعنى شيئا آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت . تعنى تلاوته عن تدبر ، ينتهى إلى إدراك وتأثر ، وإلى عمل بعــد ذلك وسلوك . ومن ثم يتبعها بإقامة الصلاة ، وبالإنفاق سرا وعلانية من رزق الله . ثم رجاؤهم بكل هذا « تجارة لن تبور » . . فهم يعرفون أن ما عند الله خير مما ينفقون . ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح . يعاملون فيها الله وحده وهى أربح معاملة ؛ ويتاجرون بها فى الآخرة وهى أربح تجارة .. تجارة مؤدية إلى توفيتهم أجورهم ، وزيادتهم من فضل الله .. « إنه غفور شكور » .. يغفر التقصير ويشكر الأداء . وشكره ــ تعالى ــ كناية عما يصاحب الشكر عادة من الرضى وحسن الجزاء . ولــكن التعبير يوحى للبشر بشكر النعم . تشبها واستحياء . فإذا كان هو يشكر لعباده حسن الأداء أفلا يشكرون له هم حسن العطاء ؟!

* * *

ثم إشارة إلى طبيعة الــكتاب ، وما فيــه من الحق ، تمهيداً للحديث عن ورثة هــذا الــكتاب :

« والذى أوحينا إليك من الــكتاب هو الحق ، مصدقا لما بين يديه . إن الله بعباده لخبير بصير » . . .

ودلائل الحق فى هــذا الــكتاب واضحة فى صلبه ؛ فهو الترجمة الصحيحة لهذا الــكون فى حقيقته ، أو هو الصفحة المقروءة والــكون هو الصفحة الصامتة . وهو مصدق لما قبله من

الكتب الصادرة من مصدره . والحق واحد لا يتعدد فيها وفيه . ومنزله نزله للناس وهو على علم بهم ، وخبرة بما يصلح لهم ويصلحهم : « إن الله بعباده لخبير بصير » ..

هذا هو الكتاب فى ذاته . وقد أورثه الله لهذه الأمة المسلمة ، اصطفاها لهذه الوراثة ، كما يقول هنا فى كتابه :

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » ..

وهى كلمات جديرة بأن توحى لهذه الأمة بكرامتها على الله ؛ كما توحى إليها بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة . وهى تبعة ضخمة ذات تكاليف ، فهل تسمع الأمة المصطفاة وتستجيب ؟

إن الله سبحانه قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء للوراثة ؛ ثم أكرمها بفضله فى الجزاء حتى لمن أساء :

« فمنهم ظالم لنفسه . ومنهم مقتصد . ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » ..

فالفريق الأول ــ ولعله ذكر أولا لأنه الأكثر عددا ــ « ظالم لنفسه » تربى سيئاته فى العمل على حسناته . والفريق الثانى وسط « مقتصد » تتعادل سيئاته وحسناته . والفريق الثالث «سابق بالخيرات بإذن الله » ، تربى حسناته على سيئاته .. ولكن فضل الله شمل الثلاثة جميعا . فكلهم انتهى إلى الجنة وإلى النعيم الموصوف فى الآيات التالية . على تفاوت فى الدرجات .

ولا ندخل هنا فى تفصيل أكثر مما أراد القرآن عرضه فى هذا الموضع من كرامة هذه الأمة باصطفائها ، وكرم الله سبحانه فى جزائها . فهذا هو الظل الذى تلقيه النصوص هنا ، وهى النهاية التى تنتهى إليها هذه الأمة جميعا ــ بفضل الله ــ ونطوى ما قد يسبق هذه النهاية من جزاء مقدر فى علم الله .

نطوى هذا الجزاء المبدئى لنخلص إلى ما قدره الله لهذه الأمة بصنوفها الثلاثة من حسن الجزاء :

« ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . إن ربنا لغفور شكور .

الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » ..

إن المشهد [1] يتكشف عن نعيم مادى ملموس ، ونعيم نفسى محسوس . فهم « يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير » .. وذلك بعض المتاع ذى المظهر المادى، الذى يلبى بعض رغائب النفوس . وبجانبه ذلك الرضى وذلك الأمن وذلك الاطمئنان : « وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » . . والدنيا بما فيها من قلق على المصير ، ومعاناة للأمور تعد حزنا بالقياس إلى هـذا النعيم المقيم . والقلق يوم الحشر على المصير مصدر حزن كبير. « إن ربنا لغفورشكور » . . غفر لنا وشكر لنا أعمالنا بما جازانا عليها . « الذى أحلنا دار المقامة » . . . للإقامة والاستقرار « من فضله » فما لنا عليه من حق ، إنما هو الفضل يعطيه من يشاء . « لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » . . بل يجتمع لنا فيها النعيم والراحة والاطمئنان .

فالجو كله يسر وراحة ونعيم . والألفاظ مختارة لتتسق بجرسها وإيقاعها مع هذا الجو الحانى الرحيم . حتى « الحزن » لا يتكأ عليه بالسكون الجازم . بل يقال « الحزَن » بالتسهيل والتخفيف . والجنة « دار المقامة » . والنصب واللغوب لا يمسانهم مجرد مساس . والإيقاع الموسيقى للتعبير كله هادئ ناعم رتيب .

ثم نتلفت إلى الجانب الآخر . فنرى القلق والاضطراب وعدم الاستقرار على حال :

« والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها » ..

فلا هذه ولا تلك . حتى الرحمة بالموت لا تنال !

« كذلك نجزى كل كفور » . .

ثم ها نحن أولاء يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء ، متناوح من شتى الأرجاء . إنه صوت المنبوذين فى جهنم :

« وهم يصطرخون فيها » ..

وجرس اللفظ نفسه يلقى فى الحس هذه المعانى جميعا . . فلنتبين من ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول . إنه يقول:

---

(١) عن كتاب : مشاهد القيامة فى القرآن ص ١٠٠ ، ١٠١ .

« ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل » . .

إنه الإنابة والاعتراف والندم إذن . ولكن بعد فوات الأوان . فهانحن أولاء نسمع الرد الحاسم يحمل التأنيب القاسى :

« أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ؟ » . .

فلم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر ، وهى كافية للتذكر لمن أراد أن يتذكر .

« وجاءكم النذير » . .

زيادة فى التنبيه والتحذير . فلم تتذكروا ولم تحذروا .

« فذوقوا . فما للظالمين من نصير » . .

إنهما صورتان متقابلتان : صورة الأمن والراحة ، تقابلها صورة القلق والاضطراب . ونغمة الشكر والدعاء تقابلها ضجة الاصطراخ والنداء . ومظهر العناية والتكريم ، يقابله مظهر الإهمال والتأنيب . والجرس اللين والإيقاع الرتيب ، يقابلهما الجرس الغليظ والإيقاع العنيف . فيتم التقابل ، ويتم التناسق فى الجزئيات وفى الكليات سواء [1] .

وأخيرا يجىء التعقيب على هذه المشاهد جميعا ، وعلى ما سبقها من اصطفاء وتوريث :

« إن الله عالم غيب السماوات والأرض . إنه عليم بذات الصدور » .

والعلم الشامل اللطيف الدقيق أنسب تعقيب على تنزيل الكتاب . وعلى اصطفاء من يرثونه ويحملونه . وعلى تجاوز الله عن ظلم بعضهم لنفسه . وعلى تفضله عليهم بذلك الجزاء . وعلى حكمه على الذين كفروا بذلك المصير . . فهو عالم غيب السماوات والأرض . وهو عليم بذات الصدور . وبهذا العلم الشامل اللطيف الدقيق يقضى فى كل هذه الأمور . .

« هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَآئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً ، وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً .

(١) عن كتاب مشاهد القيامة فى القرآن ص ١٠٠ — ١٠١ .

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ؟ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ ؟ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ؟ بَلْ إِنْ يَعِدُ ٱلظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُوراً .

« إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ . وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً .

« وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً * ٱسْتِكْبَاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّءِ ، وَلاَ يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ؛ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ؟ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً .

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ، وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا » .

هذا المقطع الأخير فى السورة يشتمل على جولات واسعة المدى كذلك ، ولمسات للقلب وإيحاءات شتى : جولة مع البشرية فى أجيالها المتعاقبة ، يخلف بعضها بعضا . وجولة فى الأرض والسماوات للبحث عن أى أثر للشركاء الذين يدعونهم من دون الله . وجولة فى السماوات والأرض كذلك لرؤية يد الله القوية القادرة تمسك بالسماوات والأرض أن تزولا . وجولة مع هؤلاء المكذبين بتلك الدلائل والآيات كلها وهم قد عاهدوا الله من قبل لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، ثم نقضوا هذا العهد وخالفوه فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا

نفورا . وجولة فى مصارع المكذبين من قبلهم وهم يشهدون آثارهم الداثرة ولا يخشون أن تدور عليهم الدائرة وأن تمضى فيهم سنة الله الجارية .. ثم الختام الوحى الموقظ الرهيب : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » . وفضل الله العظيم فى إمهال الناس وتأجيل هذا الأخذ المدمر المبيد . .

* * *

« هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض . فمن كفر فعليه كفره . ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا . ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا » .

إن تتابع الأجيال فى الأرض ، وذهاب جيل ومجىء جيل ، ووراثة هذا لذاك ، وانتهاء دولة وقيام دولة ، وانطفاء شعلة واتقاد شعلة . وهـذا الدثور والظهور المتواليان على مر الدهور .. إن التفكير فى هذه الحركة الدائبة خليق أن يجدّ للقلب عبرة وعظة ، وأن يشعر الحاضرين أنهم سيكونون بعـد حين غابرين ، يتأمل الآتون بعدهم آثارهم ويتذاكرون أخبارهم ، كما هم يتأملون آثار من كانوا قبلهم ويتذاكرون أخبارهم . وجدير بأن يوقظ الغافلين إلى اليد التى تدير الأعمار ، وتقلب الصولجان ، وتديل الدول ، وتورث الملك ، وتجعل من الجيل خليفة لجيل . وكل شىء يمضى وينتهى ويزول ، والله وحده هو الباقى الدائم الذى لا يزول ولا يحول .

ومن كان شأنه أن ينتهى ويمضى ، فلا يخلد ولا يبقى . من كان شأنه أنه سائح فى رحلة ذات أجل ؛ وأن يعقبه من بعـده ليرى ماذا ترك وماذا عمل ، وأن يصير فى النهاية إلى من يحاسبه على ما قال وما فعل . من كان هذا شأنه جدير بأن يحسن ثواءه القليل ، ويترك وراءه الذكر الجميل ، ويقدم بين يديه ما ينفعه فى مثواه الأخير .

هـذه بعض الخواطر التى تساور الخاطر ، حين يوضع أمامه مشهد الدثور والظهور ، والطلوع والأفول ، والدول الدائلة ، والحياة الزائلة ، والوراثة الدائبة جيلا بعد جيل :

« هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض » . .

وفى ظل هذا المشهد المؤثر المتتابع المناظر ، يذكرهم بفردية التبعة ، فلا يحمل أحد عن أحد شيئا ، ولا يدفع أحد عن أحد شيئا ؛ ويشير إلى ما هم فيه من إعراض وكفر وضلال ، وعاقبته الخاسرة فى نهاية المطاف :

« فمن كفر فعليه كفره . ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا . ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا » .

والمقت أشد البغض . ومن يمقته ربه فأى خسران ينتظره ؟ وهـذا المقت فى ذاته خسران يفوق كل خسران ؟ !

***

والجولة الثانية فى السماوات والأرض ، لتقصى أى أثر أو أى خبر لشركائهم الذين يدعونهم من دون الله ، والسماوات والأرض لاتحس لهم أثرا ، ولا تعرف عنهم خبرا :

« قل : أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السماوات ؟ أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ؟ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا » .

والحجة واضحة والدليل بين . فهذه الأرض بكل ما فيها ومن فيها . هذه هى مشهودة منظورة . أى جزء فيها أو أى شئ يمكن أن يدعى مدع أن أحدا ـ غير الله ـ خلقه وأنشأه؟ إن كل شئ يصرخ فى وجه هـذه الدعوى لوجرؤ عليها مدع . وكل شئ يهتف بأن الذى أبدعه هو الله ؛ وهو يحمل آثار الصنعة التى لا يدعيها مدع ، لأنه لا تشبهها صنعة ، مما يعمل العاجزون أبناء الفناء !

« أم لهم شرك فى السماوات ؟ » . .

ولا هذه من باب أولى ! فما يجرؤ أحد على أن يزعم لهذه الآلهة المدعاة مشاركة فى خلق السماوات ، ولا مشاركة فى ملكية السماوات . كائنة ما كانت . حتى الذين كانوا يشركون الجن أو الملائكة . . فقصارى ما كانوا يزعمون أن يستعينوا بالشياطين على إبلاغهم خبر السماء . أو يستشفعوا بالملائكة عند الله . ولم يرتق ادعاؤهم يوما إلى الزعم بأن لهم شركا فى السماء !

« أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ؟ » . .

وحتى هـذه الدرجة ـ درجة أن يكون الله قد آتى هؤلاء الشركاء كتابا فهم مستيقنون منه ، واثقون مما فيـه ـ لم يبلغها أولئك الشركاء المزعومون . . والنص يحتمل أن يكون هذا السؤال الإنـكارى موجها إلى المشركين أنفسهم ـ لا إلى الشركاء ـ فإن إصرارهم على

شركهم قد يوحى بأنهم يستمدون عقيدتهم هذه من كتاب أوتوه من الله فهم على بينة منه وبرهان . وليس هذا صحيحاً ولا يمكن أن يدعوه . وعلى هذا المعنى يكون هناك إيحاء بأن أمر العقيدة إنما يتلقى من كتاب من الله بين . وأن هذا هو المصدر الوحيد الوثيق . وليس لهم من هذا شئ يدعونه ؛ بينما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد جاءهم بكتاب من عند الله بين . فما لهم يعرضون عنه ، وهو السبيل الوحيد لاستمداد العقيدة ؟ !

« بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا » . .

والظالمون يعد بعضهم بعضاً أن طريقتهم هى المثلى ؛ وأنهم هم المنتصرون فى النهاية . وإن هم إلا مخدوعون مغرورون ، يغر بعضهم بعضا ، ويعيشون فى هـذا الغرور الذى لا يجدى شيئا . .

* * *

والجولة الثالثة ـ بعد نفى أن يكون للشركاء ذكر ولا خبر فى السماوات ولا فى الأرض ـ تـكشف عن يد الله القوية الجبارة تمسك بالسماوات والأرض وتحفظهما وتدبر أمرهما بلا شريك :

« إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده. إنه كان حليما غفورا » ..

ونظرة إلى السماوات والأرض ؛ وإلى هذه الأجرام التى لا تحصى منتثرة فى ذلك الفضاء الذى لا تعلم له حدود . وكلها قائمة فى مواضعها ، تدور فى أفلاكها محافظة على مداراتها ، لا تختل ، ولا تخرج عنهـا ، ولا تبطىء أو تسرع فى دورتها ، وكلها لا تقوم على عمد ، ولا تشد بأمراس [1] ، ولا تستند على شىء من هنا أو من هناك . . نظرة إلى تلك الخلائق الهائلة العجيبة جديرة بأن تفتح البصيرة على اليد الخفيـة القاهرة القادرة التى تمسك بهذه الخلائق وتحفظها أن تزول .

ولئن زالت السماوات والأرض عن مواضعها ، واختلت وتناثرت بددا ، فما أحد بقادر على أن يمسكها بعد ذلك أبدا . وذلك هو الموعد الذى ضربه القرآن كثيراً لنهاية هذا العالم .

(١) الأمراس : الحبال المتينة .

حين يختل نظام الأفلاك وتضطرب وتتحطم وتتناثر ؛ ويذهب كل شيء فى هذا الفضاء لايمسك أحد زمامه .

وهذا هو الموعد المضروب للحساب والجزاء على ما كان فى الحياة الدنيا . والانتهاء إلى العالم الآخر ، الذى يختلف فى طبيعته عن عالم الأرض اختلافا كاملا .

ومن ثم يعقب على إمساك السماوات والأرض أن تزولا بقوله :

« إنه كان حليما غفورا » . .

« حليما » يمهل الناس ، ولا ينهى هذا العالم بهم ، ولا يأخذ بنواصيهم إلى الحساب والجزاء إلا فى الأجل المعلوم . ويدع لهم الفرصة للتوبة والعمل والاستعداد . « غفورا » لا يؤاخذ الناس بكل ما اجترموا ، بل يتجاوز عن كثير من سيئاتهم ويغفرها متى علم فيهم خيرا . وهو تعقيب موح ينبه الغافلين لاقتناص الفرصة قبل أن تذهب فلا تعود .

***

والجولة الرابعة مع القوم وما عاهدوا الله عليه، ثم ما انتهوا بعد ذلك إليه من نقض للعهد ، وفساد فى الأرض . وتحذير لهم من سنة الله التى لا تتخلف ، ولا تبديل فيها ولا تحويل :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم . فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكباراً فى الأرض ومكر السيء — ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله — فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » . .

ولقد كان العرب يرون اليهود أهل كتاب يجاورونهم فى الجزيرة ؛ وكانوا يرون من أمر انحرافهم وسوء سلوكهم ما يرون ؛ وكانوا يسمعون من تاريخهم وقتلهم رسلهم ، وإعراضهم عن الحق الذى جاءوهم به . وكانوا إذ ذاك ينحون على اليهود ؛ ويقسمون بالله حتى ما يدعون مجالا للتشديد فى القسم : « لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم » . . يعنون اليهود . يعرضون بهم بهذا التعبير ولا يصرحون !

ذلك كان حالهم وتلك كانت أيمانهم . . يعرضها كأنما يدعو المستمعين ليشهدوا على ما كان

من هؤلاء القوم فى جاهليتهم . ثم يعرض ما كان منهم بعد ذلك حينما حقق الله أمنيتهم ، وأرسل فيهم نذيرا :

« فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا . استكبارا فى الأرض ومكر السيء ! » . .

وإنه لقبيح بمن كانوا يقسمون هذه الأيمان المشددة أن يكون هذا مسلكهم : استكبارا فى الأرض ومكر السيء . والقرآن يكشفهم هذا الكشف ، ويسجل عليهم هذا المسلك . ثم يضيف إلى هذه المواجهة الأدبية المزرية بهم ، تهديد كل من يسلك هذا المسلك الزرى :

« ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » . .

فما يصيب مكرهم السيء أحداً إلا أنفسهم ؛ وهو يحيط بهم ويحيق ويحبط أعمالهم .

وإذا كان الأمر كذلك فماذا ينتظرون إذن ؟ إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم ، وهو معروف لهم . وإلا أن تمضى سنة الله الثابتة فى طريقها الذى لا يحيد :

« ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » ..

***

والأمور لا تمضى فى الناس جزافا ؛ والحياة لا تجرى فى الأرض عبثا ؛ فهناك نواميس ثابتة تتحقق ، لا تتبدل ولا تتحول . والقرآن يقرر هـذه الحقيقة ، ويعلمها للناس ، كى لا ينظروا الأحداث فرادى ، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة ، محصورين فى فترة قصيرة من الزمان ، وحيز محدود من المكان . ويرفع تصورهم لارتباطات الحيـاة ، وسنن الوجود ، فيوجههم دائما إلى ثبات السنن واطراد النواميس . ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم ؛ ودلالة ذلك الماضى على ثبات السنن واطراد النواميس .

وهـذه الجولة الخامسة نموذج من نماذج هذا التوجيه بعد تقرير الحقيقة الكلية من أن سنة الله لا تتبدل ولا تتحول :

« أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ــ وكانوا أشد منهم قوة ــ وما كان الله ليعجزه من شيء فى السماوات ولا فى الأرض . إنه كان عليما قديرا » .

والسير فى الأرض بعين مفتوحة وقلب يقظ ؛ والوقوف على مصارع الغابرين ، وتأمل

ما كانوا فيه وما صاروا إليـه . . كل أولئك خليق بأن تستقر فى القلب ظلال وإيحاءات ومشاعر وتقوى . .

ومن ثم هـذه التوجيهات المكررة فى القرآن للسير فى الأرض والوقوف على مصارع الغابرين ، وآثار الذاهبين . وإيقاظ القلوب من الغفلة التى تسدر فيها ، فلا تقف . وإذا وقفت لاتحس . وإذا أحست لاتعتبر . وينشأ عن هـذه الغفلة غفلة أخرى عن سنن الله الثابتة . وقصور عن إدراك الأحداث وربطها بقوانينها الكلية . وهى الميزة التى تميز الإنسان المدرك من الحيوان البهيم ، الذى يعيش حياته منفصلة اللحظات والحالات ؛ لارابط لهـا ، ولاقاعدة تحكمها . والجنس البشرى كله وحدة أمام وحدة السنن والنواميس .

وأمام هذه الوقفة التى يقفهم إياها على مصارع الغابرين قبلهم ــ وكانوا أشد منهم قوة ــ فلم تعصمهم قوتهم من المصير المحتوم . أمام هذه الوقفة يوجه حسهم إلى قوة الله الكبرى . القوة التى لايغلبها شىء ولايعجزها شىء ؛ والتى أخذت الغابرين وهى قادرة على أخذهم كالأولين :

« وما كان الله ليعجزه من شىء فى السماوات ولا فى الأرض » . .

ويعقب على هذه الحقيقة بما يفسرها ويعرض أسانيدها :

« إنه كان عليما قديرا » . .

يحيط علمه بكل شىء فى السماوات والأرض ؛ وتقوم قدرته إلى جانب علمه . فلا يند عن علمـه شىء ، ولايقف لقدرته شىء . ومن ثم لايعجزه شىء فى السماوات ولافى الأرض . ولامهرب من قدرته ولااستخفاء من علمه : « إنه كان عليما قديرا » . .

* * *

وأخيرا يجىء ختام السورة ، يكشف عن حلم الله ورحمتـه إلى جانب قوته وقدرته ؛ ويؤكد أن إمهال الناس عن حلم وعن رحمـة ، لايؤثر فى دقة الحساب وعدل الجزاء فى النهاية :

« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة . ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى . فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا » . .

إن ما يرتكبه الناس من كفر لنعمة الله ، ومن شر فى الأرض وفساد ، ومن ظلم

فى الأرض وطغيان . إن هذا كله لفظيع شنيع . ولو يؤاخذ الله الناس به ، لتجاوزهم — لضخامته وشناعته وبشاعته — إلى كل حى على ظهر هذه الأرض . ولأصبحت الأرض كلها غير صالحة للحياة إطلاقا . لا لحياة البشر فحسب ، ولكن لكل حياة أخرى !

والتعبير على هذا النحو يبرز شناعة ما يكسب الناس وبشاعته وأثره المفسد المدمر للحياة كلها لو آخذهم الله به مؤاخذة سريعة .

غير أن الله حليم لا يعجل على الناس :

« ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى » ..

يؤخرهم أفرادا إلى أجلهم الفردى حتى تنقضى أعمارهم فى الدنيا . ويؤخرهم جماعات إلى أجلهم فى الخلافة المقدرة لهم حتى يسلموها إلى جيل آخر . ويؤخرهم جنسا إلى أجلهم المحدد لعمر هذا العالم ومجىء الساعة الكبرى . ويفسح لهم فى الفرصة لعلهم يحسنون صنعا .

« فإذا جاء أجلهم » ..

وانتهى وقت العمل والكسب ، وحان وقت الحساب والجزاء ، فإن الله لن يظلمهم شيئا :

« فإن الله كان بعباده بصيرا » ..

وبصره بعباده كفيل بتوفيتهم حسابهم وفق عملهم وكسبهم ، لا تفوت منهم ولا عليهم كبيرة ولا صغيرة .

***

هذا هو الإيقاع الأخير فى السورة التى بدأت بحمد الله فاطر السماوات والأرض . « جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة » يحملون رسالة السماء إلى الأرض . وما فيها من تبشير وإنذار فإما إلى جنة وإما إلى نار ..

وبين البدء والختام تلك الجولات العظام فى تلك العوالم التى طوفت بها السورة . وهذه نهاية المطاف . ونهاية الحياة . ونهاية الإنسان ..

## كتب للمؤلف

| | | |
|---|---|---|
| ١ ــ فى ظلال القرآن | ( فى ثلاثين جزءاً ) | دار إحياء الكتب العربية |
| ٢ ــ العدالة الاجتماعية فى الإسلام | ( طبعة رابعة ) | « « « « |
| ٣ ــ معركة الإسلام والرأسمالية | ( « ثانية ) | دار الإخوان للطباعة والصحافة |
| ٤ ــ السلام العالمى والإسلام | ( « ثانية ) | مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعابدين |
| ٥ ــ دراسات إسلامية | ( « أولى ) | مكتبة لجنة الشباب المسلم |
| ٦ ــ التصوير الفنى فى القرآن | ( « رابعة ) | دار المعارف |
| ٧ ــ مشاهد القيامة فى القرآن | ( « ثالثة ) | « « |
| ٨ ــ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه | ( « ثانية ) | دار الفكر العربى |
| ٩ ــ أشواك | ( « أولى ) | دار سعد مصر بالفجالة |
| ١٠ ــ طفل من القرية | ( « « ) | لجنة النشر للجامعيين |
| ١١ ــ الأطياف الأربعة | ( بالاشتراك مع إخوته ) | « « « |
| ١٢ ــ القصص الدينى | ( بالاشتراك مع الأستاذ السحار ) | « « « |
| ١٣ ــ الشاطئ المجهول | ( شعر ) | . . . تقد |
| ١٤ ــ كتب وشخصيات | ( نقد ) | . . . « |
| ١٥ ــ مهمة الشاعر فى الحياة | ( « ) | . . . « |
| ١٦ ــ نقد كتاب مستقبل الثقافة | ( « ) | . . . « |
| ١٧ ــ المدينة المسحورة | ( قصة ) | . . . « |


### الكتب التالية

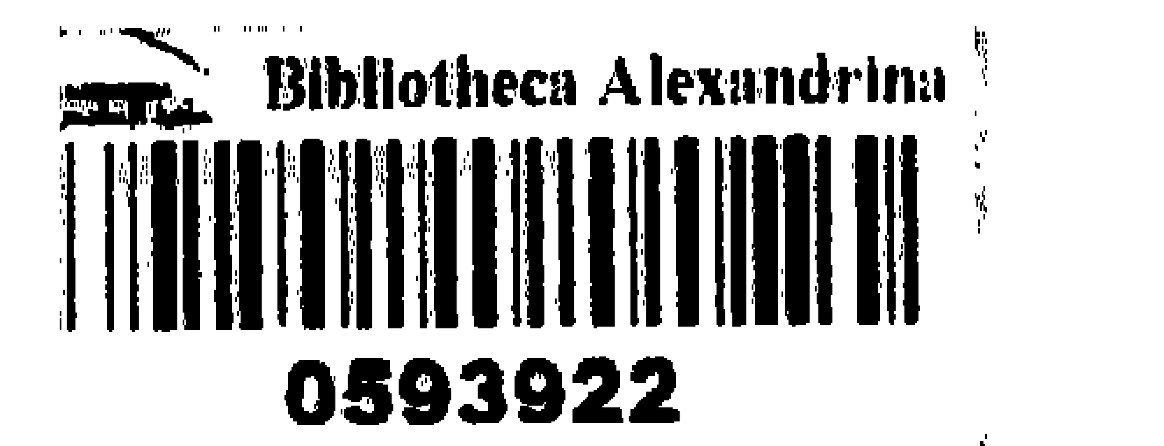
(١) نحو مجتمع إسلامى

(٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر ( شعر )

(٤) قافلة الرقيق ( شعر )




Bibliotheca Alexandrina
0593922